

## فهرست

- ٥ ١ - عصاب شيطاني من القرن السابع عشر
- ٤٨ ٢ - الافعال التسلطية والشعائر الدينية
- ٦٠ ٣ - موازيات ميتولوجية لتمثل وسواسي تشكيلي
- ٦٤ ٤ - حادث من الحياة الدينية
- ٦٩ ٥ - التحليل النفسي وانبات الوقائع في المضمير القضائي  
بمنهج تشخيصي
- ٨٤ ٦ - طباق المعاني في الالفاظ البدائية
- ٩٣ ٧ - صعوبة امام التحليل النفسي

# ابليس في التحليل النفسي

ترجمة

جورج طرابيشي

سینغونڈ فروید

# إِبْلِيسُ في التحليل النفسي

ترجمة:

جورج طرابيشي

دار القطبيات للطباعة والنشر  
بيروت

جميع الحقوق محفوظة  
لدار الطليعة للطباعة والنشر

بيروت - لبنان

ص.ب ١١١٨١٣

تلفون ٣١٤٦٥٩

٣٠٩٤٧٠

الطبعة الاولى

شباط (فبراير) ١٩٨٠

الطبعة الثانية

شباط (فبراير) ١٩٨٢

## عصاب شيطاني من القرن السابع عشر<sup>(١)</sup>

رأينا ، في دراستنا لأعصبة (٢) الطفولة ، اننا نستطيع ان نكتشف فيها بالعين المجردة الكثير من الاشياء التي لو مر الزمن عليها لبنت اكتشافها بحاجة الى طول تحرر وتقص . وبوسعنا ان نتوقع الوصول الى ملاحظة مماثلة بصدد الامراض العصابية في القرون الماضية ، بشرط ان يتوفر لدينا الاستعداد لتعرفها تحت

- 
- ١ - ظهر هذا المقال لأول مرة في مجلة ايمانغو ١٩٢٣ ، الكراسة ١ : «علم النفس الديني» .  
٢ - الأعصبة جمع عصاب Névrose : اضطراب وظيفي ، نفسي المنشأ ، في الجهاز العصبي ، وهو في التحليل النفسي ظاهرة صراعية فيها معاوضة للدافع غريزي اساسي . -م-

o

## هذه ترجمة كتاب

**Une Névrose Démoniaque  
Au XVIIe Siècle  
Et Autres Essais**

Par Sigmund Freud

In

**Essais De Psychanalyse  
Appliquée**

**Idées - Gallimard  
Paris 1976**

## قصة الرسام كرسstof هايتزمن

انني ادين لمبادرة حميدة من جانب الدكتور ر. باير - ثورن Payer - Thurn ، المستشار في المحكمة العليا ومدير المكتبة الامبراطورية والملكية سابقا للاستثمانات بفيينا . بما اتاحه لي من فرصة للاطلاع على قصة عصاب من تلك الاعصبة الاليسية في القرن السابع عشر . فقد اكتشف باير - ثورن في المكتبة المذكورة مخطوطة آتية من مزار ماريازل (٥) ، وتسرّد بالتفصيل قصة الخلاص العجائبي ، بنعمة القديسة مريم العذراء ، من حلف معقود مع الشيطان . وقد انقظت اهتمامه بها علاقة هذا الموضوع بأسطورة فاوست ، مما حثه على التبحر في دراسة هذا الموضوع وتوضيحه . لكنه حين اكتشف ان الشخص الذي تصف المخطوطة خلاصه كان يشكو من نوبات تشنّجية ومن رؤى ، توجه السي ليحصل على رأي طبي في المسألة . وقد انفقنا على ان ينشر كل واحد منا بحثه على حدة وبصورة مستقلة . واني لأعرب له عن شكري لإيحائه لي بفكرة هذا البحث ، وللمساعدة التي قدمها لي مرارا في دراسة المخطوطة .

ان قصة هذا المريض الاليسية تقدم لنا بالفعل كنزاً ثميناً يتم عن وجوده بملء الشفافية ، دونما حاجة الى التمعن في التوايل . مثلما يهدي عرق المنجم المكشوف الى المعدن الصرف الخالص الذي لا سبيل الى استخلاص نظيره الا بشق الانفس من الفلز الخليط الذي يتطلب صهرا .

اسماء مغايرة لاعصبتنا الراهنة . ولا تأخذنا الدهشة اذا ما وجدنا أعصبة تلك الازمنة التالية تتلبس مظهرها يدخل ضمن نطاق علم الاليسيات ، بينما أعصبة عصرنا الحاضر ، الذي لا يزال يخطو خطواته الاولى في مضمار علم النفس ، تتبدى . وقد تنكرت في إهاب امراض عضوية . اقرب في المظهر الى الهجاس السوداوي Hypochondrie . وقد اكتشف عدد من الباحثين كما هو معلوم ، وعلى رأسهم شاركو (٢) ، تظاهرات الهستيريا في تمثيلات المس الشيطاني والانجذاب (٤) التي أورثنا إياها - الفن ؛ والحق انه ما كان ليحصر اكتشاف مضمون العصاب قسي تاريخ هذه الامراض فيما لو وجد عصرئذ من يعيرها المزيد من الانتباه .

لقد كانت النظرية الاليسية الشائعة في تلك الازمنة المظلمة اقرب الى الصحة والصواب من جميع التوايلات البدنية التي رأت انور في حقبة الرياضيات التي سميت بـ «العلوم الدقيقة» . فغروب المس تناظر أعصبتنا التي عمدنا الى تفسيرها بالاستعانة من جديد بالقوى النفسية . فالأبالسة في نظرها نحن ، رغبات شريرة ، مستهجنة ، تنبع من دوافع مكبوحة - مكبوتة . وكل ما هنالك اننا نتعاضى اسقاط هذه الخلاق النفسية في العالم المسم الخارجي على نحو ما كان يفعل العصر الوسيط : بل ندعيا تولد في حياة المرضى الداخلية حيث مكان اقامتها .

٢ - جان مارتن شاركو : طبيب فرنسي ١٨٢٥ - ١٨٩٣ ، مشهور بأبحاثه في الامراض العصبية ، درس عليه فرويد لفترة وجيزة من الزمن .  
٣ - الانجذاب Extase : مرض عصبي يتميز بالنطح العقلي ولبات البصر وجود الجسم وفقدان الحساسية .  
٤ -

تنقسم المخطوطة ، التي امامي منها نسخة طبق الاصل ، الى قسمين مختلفين تماما : رواية إخبارية محررة باللاتينية بقلم الكاتب او الناسخ الراهب ، و جزء من يوميات المريض مكتوب بالالمانية . ويشتمل القسم الاول على مقدمة وعلى قصة الشفاء المعجائى ؛ اما القسم الثانى فان لم يكن قد حظى بأهمية بالنسبة الى رجال الكنيسة ، فان ذلك لا يزيده الا نقاسة بالنسبة الينا نحن . فإسهامه كبير في تعزيز حكمتنا الذي لا يزال يتسم بالتردد بصدد هذه الحالة المرضية ، ومن حق أولئك الرهبان علينا ان نشكرهم على حفظهم تلك الوثيقة ، مع انه ما كان من الممكن ان تخدم ماربيهم ، هذا ان لم نقل انها تناقضها .

قبل المضي قدما الى الامام في دراسة الكراسية الصفيرية المخطوطة والمعنونة باسم Cellense - Trophaeum Mariano ، يجدر بي ان انقل للقراء شطرا من مضمونها اقتبسه مسن المقدمة .

في ٥ ايلول ١٦٧٧ اقتيد الرسام البافاري كرسطوف هايزمن ، وهو يحمل رسالة توصية من خوري بلدة بوتنبرون (جنوب النمسا) ، الى ماريازل ، القرية منها (١) . وكان قد اقام عدة اشهر في بوتنبرون ، يزاول فيها فنه ، وفيها اصابته في ٢٩ آب ، وهو في داخل الكنيسة ، تشنجات رهيبية ؛ ولما تجددت هذه التشنجات في الايام التالية فحصه الـ Praefectus Dominici Pottenbrunnensis (٧) ، وساله عما يعذبه وان كان

تورط في علاقة محرمة مع ابليس (٨) . وللحال اعترف بأنه كان قبل تسع سنوات ، في زمن وهنت فيه مقدرة الفنية وخاف ان تضيق به سبل العيش ، قد استسلم لإغراء الشيطان - الذي قد سعى تسع مرات الى ايقاعه في التجربة - وتعد له خطيا بأن يسلس له قياد جسمه وروحه لدى انقضاء الميقات . وكان اجل ذلك قد اقترب : الرابع والعشرون من الشهر الجاري آنذ (٩) . وعض الشقي اصابع الندم وداخله الاعتقاد بأن نعمة والدة الله ، عذراء ماريازل ، هي وحدها التي تستطيع انتقاذه بإرغامها ابليس على ان يعيد اليه العهد الذي خطه بدمه . ولهذا اباح كاتب التوصية لنفسه ان يوجه رسالته الى رهبان ماريازل من الآباء الصالحين ليشملوا بعطفهم وحسن التفاتهم «هذا الرجل البائس الذي ليس له من معين» (١٠) .

ذلك ما كتبه خوري بوتنبرون ، ليوبولدوس براون ، فسي الاول من ايلول ١٦٧٧ .  
وبوسعي الان ان اتابع تحليل المخطوطة . وهي تتألف منن الاقسام الثلاثة التالية :

١ - من عنوان ملون يمثل مشهد عقد العهد ومشهد الخلاص في مزار ماريازل ؛ وعلى الصفحة التالية توجد ثمانية رسوم ، ملونة ايضا ، لظهورات لاحقة للشيطان مع نوبات مقتضبة باللغة

٨ - ننوه هنا على مجل باحتمال ان تكون هذه الاسئلة قد «أوجت» للمريض بفكرة توهم حقه مع الشيطان .

Quorum Et Finis 24 Mensis Hujus Futurus  
Appropinquat

١٠ - باللاتينية في النص : Miserum Hunc Hominem Omni  
Auxilio Destitutum.

٦ - لم ترد اية اشارة في اي موضع الى عمر الرسام . وبوسعنا الافتراض بحسب السياق ، انه كان رجلا بين الثلاثين والاربعين من العمر ، وفي اوجع الفن اقرب الى الحد الأدنى . وقد توفي ، كما سئرى ، سنة ١٧٠٠ .

٧ - باللاتينية في النص : الوكيل الرباتي او المدير الرسولي للسيدة

بوتنبرون . -م-

الإمانية . وما هذه الصور بأصلية ، وإنما نسخ - نسخ أمينة على نحو ما هو معلن رسميا - عن الرسوم الأصلية بريشة كز . هانتزمن .

٢- من المتن الذي يضم التذكار Trophaeum ويسوي باللاتينية قصة الخلاص العجائبي ، وهو من وضع ناسخ منزهب يوقع نهاية الرواية بـ P.A.E ، ويضيف إلى هذه الأحرف أربعة أبيات من الشعر يضمها سيرة حياته . وتتألف الخاتمة من شهادة من الأب كيليان رئيس دير سان - لامبير ، بتاريخ ١٢ ايلول ١٧٢٩ ، يؤكد فيها ، بخط مختلف عن خط الناسخ ، دقة التوافق بين المخطوطة والصور وبين النسخة الأصلية المحفوظة في الارشيف . ولا يرد ذكر للسنة التي ألف فيها التذكار . ولنسا الخيار بين التسليم بأنه وضع في السنة نفسها التي أعطى فيها الأب كيليان شهادته ، أي في سنة ١٧٢٩ ، وبين إرجاع زمن عمل الناسخ إلى ما بين ١٧١٤ و ١٧٢٩ على اعتبار أن آخر تاريخ يرد ذكره في النص هو ١٧١٤ . أما الاعجوبة التي أريد بذلك الكتاب صونها من النسيان فقد حدثت في سنة ١٦٧٧ ، أي قبل فترة تتراوح ما بين ٢٧ و ٥٢ سنة .

٣ - من يوميات الرسام المحررة بالإمانية ، والتي تمتد من لحظة تحرره في المزار إلى ١٣ كانون الثاني من السنة التالية (١٦٧٨) . وقد أدرجت في نص التذكار قبيل خاتمته بقليل .

تتألف مادة التذكار بحصر المعنى من رسالة التوصية الآتية الذكر بقلم ليوبولد براون ، خوري بوتنبرون ، بتاريخ ١ ايلول ١٦٧٧ ، ومن رواية الأب فرانسيسكوس رئيس دير ماريسالز وسان - لامبير ، التي يسرد فيها قصة الشفاء العجائبي ، بتاريخ ١٢ ايلول ١٦٧٧ ، أي بعد الرسالة الأولى ببضعة أيام . وقد كتب المحرر أو الناسخ P.A.E مدخلا دمج فيه بنوع مما الوقيفتين كلتيهما ، ثم اضاف اليه بعض فقرات الربط غير ذات اهمية ، وفي الخاتمة رواية لمغامرات الرسام اللاحقة . استنادا

إلى معلومات جمعت سنة ١٧١٤ (١١) .  
هكذا تكون وقائع حياة الرسام قد رويت ثلاث مرات فسي  
التذكار .

١ - في رسالة التقديم بقلم خوري بوتنبرون .

٢ - في التقرير الرسمي للاب فرانسيسكوس .

٣ - في مدخل المنشئ .

ومن مقارنة هذه المصادر الثلاثة تبرز بعض الاختلافات التي  
لن يكون من غير المجدي تحريها وتتبعاها .

استطيع الآن ان اتابع قصة الرسام . فبعد طول توبة وتكفير  
وصلاة في ماريازل ، بتاريخ ٨ ايلول . وهو عيد ميلاد العذراء  
وعند منتصف الليل ، استرد من الشيطان ، الذي ظهر في المزار  
المقدس في صورة تنين مجنح ، العهد المحرور بالدم . وسوف نعلم  
لاحقا ، على دهنشة عظيمة منا ، ان قصة الرسام كز . هانتزمن  
تشتمل على عهدين مع الشيطان : عهد كتب بالحبر الاسود ، وآخر  
حرر بالدم . وفي مشهد التعزيم الآف الذكر لا يرد ذكر ، كما  
يستبان ذلك على كل حال من صورة العنوان ، الا للعهد المكتوب  
بأحرف من دم ، أي للعهد الاخير في ترتيب التحرير .

هنا يمكن ان يساورنا ، بصدد المصادقة التي ينبغي ان نقر  
بها للرواة الورعاء ، شك ينهنا الى ضرورة عدم تبديد مجهودنا  
في مسألة هي من نتاج اباطيل المعتدات الرهبانية . فمما ترويه  
المخطوطة ان عددا من رجال الكليروس ، المذكورين بأسمائهم ،  
قدموا مساعدتهم طول الوقت للمعزّم عليه . وانهم كانوا حاضرين  
ايضا عند ظهور الشيطان في المزار . ولو زعمت رواية المخطوطة

١١ - يمكن ان نعثر ذلك بمثابة توكيد بأن التذكار ايضا قد حُسر

سنة ١٧١٤ . -م-

انهم شاهدوا هم أيضا التنين الشيطاني حين ناول الرسام الصك المكتوب بالأحمر (Schedam Sibi Porrigentem Conspexisset) لكننا وجدنا أنفسنا أمام عدد من الفرضيات غير المستحبة . وقد يكون أقلها إخراجا فرضية هلوسة جماعية . غير ان نص الشهادة التي حررها الأب فرانسيسكوس بالذات يضع حدا لهذا الشك. اذ لم يرد فيها ذكر البتة لكون الرهبان المساعدين قد راوا هم أيضا الشيطان ، بل نصت ببساطة واستقامة على ان الرسام انتزع نفسه على حين بغتة من بين أيدي الرهبان الذين كانوا يمسكون به ليهرع نحو ركن المزار حيث رأى الشبح ثم عاد بعد ذلك والصك بيده (١٢) .

كانت المعجزة كبيرة ، وانتصار والدة الله القديسة علسى الشيطان لا ريب فيه . لكن الشفاء لم يكن للاسف دائما . ولتؤكد مرة أخرى على نزاهة الرهبان اذ لم يخفوا هذه الواقعة عمن الانظار . فقد غادر الرسام ماريازل بعيد ذلك . وهو في احسن حال ، وقصد فيمينا حيث اقام لدى شقيقة له متزوجة . وهناك انتابته ، في ١١ تشرين الاول ، نوبات جديدة ، وأكثرها خطير . وقد اوردت اليوميات خبرها حتى يوم ١٢ كانون الثاني . كانت عبارة عن رؤى ، وعن غيوبات كان المريض يحس انثناءها ويعاين شتى الاشياء ، وعن حالات تشنجية ترافقها احاسات مؤلمة للغاية ، ومرة شلل في الساقين ، وهكذا دواليك . لكن ليس الشيطان من كان يعوده هذه المرة ، وانما اشخاص قديسون كالسبح والعذراء القديسة بنفسها . والعجيب في الامر ان

اوجاعه الناجمة عن هذه الرؤى القديسة وعن العقوبات التي كانت تنزلها به ما كانت تقل عن تلك التي كان يعانيها سابقا تحت وطأة علاقته بالشيطان . بل انه يضع في يومياته هذه الاحداث الجديدة في باب تجليات الشيطان ، وقد تشكى من تجليات السروح الشرير (١٢) حين عاد في ايار ١٦٧٨ الى ماريازل .

وكانت الدريعة التي تقدم بها الى الرهبان لتعليل عودته انه لا يزال عليه ان يطالب الشيطان بصك عهد آخر كان قد كتبته بالحجر (١٤) . وفي هذه المرة ايضا استجيب التماسه بشفاعة العذراء القديسة والآباء الورعاء . لكن الرواية تلزم الصمت بصدد الكيفية التي حدث بها ذلك . وهي لا تذكر سوى كلمات قلائل : Qua Iuxta Votum Reddita (١٥) . من جديد صلي ، واستجابة لصلاته أعيد اليه الصك . ولما شعر عندئذ انه قد تحرر تماما ، انتسب الى رهبانية اخوة الرافة .

وينبغي ان نقر من جديد بان الطابع المفروض لعمل الناسخ لم يحمله مع ذلك على الحيدان عن جادة الصدق الذي من حقنا ان نطالب به اي راو لقصة مريض . فهو لا يخفي النتائج التي تمخض عنها تحقيق اجري ، بعد وفاة الرسام ، لدى سلطات دير اخوة الرافة سنة ١٧١٤ . فالاب الموقر رئيس الديرس يروي ان الاخ كريزوستوموس (١٦) تعرض عدة مرات أخرى لهجمات إبليس الذي

١٢ - باللاتينية في النص : Maligni Spiritus Manifestationes

١٤ - هذا الصك ، الذي حرق كما هو مذكور في شهر ايلول ١٦٨٨ ، كان بالثالي بعد تسعة اشهر ونصف شهر ، اي في ايار ١٦٧٨ ، قد تجاوز منذ زمن تاريخ استحقاقه .

١٥ - باللاتينية في النص : «قعيد اليه حسب طلبه» . -م-

١٦ - اي قم الذهب . -م-

12 — Ipsumque Daemonem ad Aram Sac. Cellae per fenestrellam in cornu Epistolae Schedam sibi porrigentem conspexisset eo advolans e Religiosorum manibus, qui eum tenebant, ipsam Schedam Ad manum obtinuit...

كان يريد ان يجره الى عقد عهد جديد . ولكن هذا فقط «عندما كان يفرط قليلا في شرب الخمر» . غير انه امكن على الدوام ، بفضل نعمة الله ، رد الشيطان على اعقابيه . وقد توفي الاخ كريزوستوموس بعد ذلك «بوداعة وملؤه العزاء» بحمى الدق ، في العام ١٧٠٠ . في دير الرهبانية . في نوشتات على نهر مولدوفا .

## - ٢ -

### علة العهد مع الشيطان

اذا نظرنا الى قصة هذا العهد الشيطاني على انها قصة مرض عصابي . فان مشكلة تحليل العهد - وهي مشكلة ذات صلة وثيقة اصلا بمشكلة تسبیب المرض - ستكون اول ما يستأثر باهتمامنا . فلماذا يهب الانسان نفسه للشيطان ؟ صحيح ان الدكتور فاوست يسأل بازدياء : «ما بوسعك ان تعطيني ، وانت نفسك شيطان مسكين ؟» . لكنه لم يكن على حق : فالشيطان يملك ان يعطي ، مقابل نفس خالدة ، كل صنوف الاشياء التي يثمنها بنو البشر عالى الثمنين : الثروة . الامان في خضم الخطر . السلطان على الناس وعلى قوى الطبيعة . بل حتى الفنون السحرية . ولكن اولاً . وقبل كل شيء ، المتعة . التمتع بجميلات النساء (١٧) . فماذا يمكن ان

١٧ - انظر في فاوست ، الفصل الاول (مشهد المكتبة) :

اود الالتزام هنا بخدمتك

وطاعتك بلا كلل ولا ملل ؟

ويوم تلقى ثانية في العالم الآخر

عليك ان تعاملني بالمثل .

نكون ، والحالة هذه ، بالنسبة الى كرسطوف هايتزمن علة عهده ؟ ليس لاية رغبة من هذه الرغبات الطبيعية تماما . مهما بدا ذلك باعشا على العجيب . وتلافيا لكل حيرة وتردد . حسينا ان ندقق النظر في التعليقات الغشبية التي يرفق بها الرسام ظهورات الشيطان التي صورها . هاكم . على سبيل المثال . ما جاء في التعليق على الرؤيا الثالثة :

«المرءة الثالثة ظهر لي خلال عام ونصف في هذا المظهر القطيع . وفي يده كتاب ليس فيه الا شعوذة وسحر اسود...» . لكننا نعلم من التعليق المرافق لظهور لاحق ان الشيطان قرع الرسام تقريبا شديدا لانه «احرق الكتاب الذي كان قد اعلن عنه» . وتوعده بان يمزقه اربا اربا اذا لم يستطع تأمينه لسهه من جديد .

وفي الظهور الرابع يريه صرة نقود صفراء كبيرة وقطعة كبيرة من النقد الذهبي . ويوعده بان يهبه منها قدر ما يشاء . «لكني لم اقبل بذلك البتة !» . ومن حق الرسام . بالفعل ، ان يتباهى بذلك .

وفي مرة اخرى يسأله ان يلهو ويتسلى . ويعلق الرسام على ذلك بقوله : «هذا بالفعل ما حدث بناء على طلبة ، لكني لم استمر قط اكثر من ثلاثة ايام . وللحال بعد ذلك عدت الى الاستكفاف» . ان يكن اذن قد رفض السحر والمال والملاذات ، فما كان له ان يجعلها ضمن شروط العقد . وان المرء لتساوره بالفعل الحاجة الى معرفة ما كان الرسام ينتظره حقا من الشيطان حين نذر نفسه له . وعلى كل ، لا بد ان يكون هناك سبب ما وراء طلب الدخول في اتصال مع الشيطان .

يقدم لنا التذكاري في الواقع بصدد هذه النقطة معلومة موثوقة . اذ لما استبدت بالرسام السويداء ، كان قد امسى عاجزا او عاجزا عن العمل . وقد ركبته الهموم بصدد تدبير امر



معاشه ، مما يعني انه كان مضطرا بهبوط سوداوي مع كف عن العمل وخشية (لها ما يبررها) على قوت يومه . اذن فالقصة التي بين ايدينا قصة مريض فعلا . ونحن نعلم في الوقت نفسه ما كان سبب هذا المرض الذي سماه الرسام نفسه . وبصريح العبارة ، بالسويداء («لذا كان ينبغي ان اتسلى واطرد السويداء») . والمصدر الاول من مصادرنا الثلاثة ، اي رسالة التوصية بقلم الخوري ، لا تأتي الا بذكر حالة الهبوط «dum artis suae progressum emolumentumque secuturum pusillanimitis perperderet» (١٨) . لكن المصدر الثاني ، اي تقرير الاب فرانسيسكوس ، تمكن من ان يسمي لنا نقطة انطلاق هذا الهبوط او الاكتئاب ، اذ يقبول بهذا الصدد : «accepta Aliqua pusillanimitate ex morte parentis» (١٩) . كذلك جاء في مقدمة الناسخ بالافاظ نفسها ولكن مقلوبة : «ex morte parentis accepta aliqua pusillanimitate» . اذن فقد توفي والده ، ولهذا وقع فريسة السويداء ؛ وعندئذ ظهر له الشيطان ، وسأله عن سر اضطرابه وحزنه الشديدين ، ووعده بأن «يساعده بكل الوسائل ويسعفه» (٢٠) .

نحن اذن امام شخص يبيع نفسه للشيطان بقية الخلاص من اكتاب نفسي . وهذه في الحق ذريعة ممتازة ! وهي مفهومة تماما بالنسبة الى اي شخص يقدر على وضع نفسه موضع انسان يعاني الآلام مثل تلك الحالة ويعرف ، فضلا عن ذلك ، مدى ضآلة قدرة

١٨ - باللاتينية في النص : «ناظرا الى تقدم فنه وقيمته بهبوط همة» . سم-

١٩ - باللاتينية في النص : «وقد امتراه ثبوت الهمة هذا غداة وفاة

والده» . سم-

٢٠ - انظر صورة العنوان الاولى والتفسير للآيات لها : الشطر مستطيل

في هيئة «بورجوازي محترم» .

فن الغلب على تسكين هذا الداء . ومع ذلك ، ليس لاحد من قرأنا ان يحزر ما العبارات التي صيغ بها العهد العقود مسع الشيطان او بالاحرى العهدان الانسان ، واولهما كتب بالحبر . وثانيهما حرر بالدم بعد زهاء نصف عام ، وكلاهما محفوظ . كما هو مذكور . في مدخر ماربازل . ومنسوخ في التذكار .

ان هذين العهدين ليعتبران على العجب الشديدين من زاويتي النسخين . فاما أولا لا تضمنان على اي التزام من جانب الشيطان مقابل رهن الخلاص الابدي لديه . كما ان الرسام وحده هو المارم نانبا بملكية طلب الشيطان . وانه لشيء بعيد عن المنطق . بل ضرب من العيب . ان يفامر ذلك الرجل بروحه لا لينال شيئا من الشيطان . بل ليزدي له شيئا . وأغرب من هذا ايضا الالتزام الواقع على عاتق الرسام . فلعقد الاول . المكتوب بالحبر . ينص على ما يلي :

**انا الموقع هنا ، كرسstof هايتزمن ، انذر نفسي لهذا السيد وكأنني ابنه من صلبه لمدة تسع سنوات .**  
العام ١٦٦٩ .

وينص العقد الثاني . المكتوب بالدم :

**سنة ١٦٦٩**  
**كرستوف هايتزمن . اعهد بنفسه كتابة الى هذا الشيطان ، واعدا بان اكون ابنه من صلبه ، وبان اكون بعد تسع سنوات ملكا له جسدا وروحا .**

بعد ان عجبنا بزول كله معنى ما أعدنا ترتيب نص العهد بحيث يتغلب ما يبدو فيه وكأنه مطلب للشيطان الى وعد من جانيه بالاحرى . ويمثل بالتالي ما يطلبه الرسام منه . وعندئذ يأخذ هذا العهد المعز معنى مباشرا ويفقد فاعلا للذويعل على النحو التالي :

يتعهد الشيطان للرسم ، لسنوات تسع ، بأن يقوم له مقام والد المد المتوفى . فإذا ما انقضى هذا الاجل ، وقع الرسم جسما وروحاً تحت سلطانه ، بحسب الصيغة الدارج استعمالها في هذا النوع من الصفقات . وعليه ، فإن مسار افكار الرسام . التي كانت حافزه الى فعلته ، يتحدد كما يلي على ما يبدو : لقد فقد . يوفاة ابيه . كل رغبة في العمل وكل مقدرة عليه ؛ فان وجد بديلا لهذا الاب . فامله عندئذ ان يعرض عن هذه الخسارة . وحتى يغدو المرء سوداويا بعد وفاة ابيه ، فلا بد ان يكون قد احبه حبا جما . ولكن من المستغرب في هذه الحال ان نخطر في بال الابن فكرة اتخاذ الشيطان بديلا عن ذلك الاب المحبوب .

- ٣ -

## الشيطان بديل الأب

ان نكن قد اوضحنا بلا مearاة مغزى هذا العهد مع الشيطان بالاستناد الى ذلك التأويل المقلوب . فهذا ما لن نسلم لنا به - أخشى ذلك - فقد هادىء . فبوسع نقد كهذا ان يواجهنا بلااعتراضين التاليين . فليس من الضروري أولا اعتبار العهد نقدا ينص على التزامات الطرفين . بل هو لا يشتمل بالاحرى الا على التزام الرسام ؛ على اعتبار ان التزام الشيطان بقي مستبعدا من النص ، بوصفه «مضمرا» بنوع ما . والحال ان الرسام يلتزم التزامين : أولا بأن يعتبر نفسه ابن الشيطان لدى تسع سنوات، ثم بأن يكون ملكه جسما وروحا بعد ممانه . وهذا الاعتراض اذا صح يكون قد قوض احد الاسس التي بنيها عليها استنتاجنا . اما الاعتراض الثاني فمؤداه انه لا يجوز اعطاء عبارة «ان اكون ابنه من صلبه» وزنا اكبر مما ينبغي ، وانها قد لا تعدو ان تكون

اسلوبا دارجا في الكلام على نحو ما فهمها السادة الرهبان . وبالفعل ، لا يترجم هؤلاء الى لانيتهيم البتة الموعودة فسي العيدين . بل يكتفون بالقول بأن الرسام نذر نفسه Mancipavit للشيطان ، متعهدا بأن يعيش في الخطيئة وبين ينكر الله والثالث الاقدس . فما الداعي للابتعاد عن هذا التأويل الذي يكذب يكون بدهيا ولا قس فيه (٢١) ؟ وفي هذه الحال سيكون الامر في غاية من البساطة : انسان سوداوي ، يفترسه العذاب والضيق الميزان لهذه الحالة الهبوطية . يندر نفسه للشيطان ويقر له بذلك باعظم سلطان علاجي . وما علينا ان نهم أكثر من اللازم يكون هذا الهبوط ناشئا عن وفاة الاب ؛ فمن الممكن ان تكون له نقطة انطلاق مغايرة تمام . ومثل هذا الاعتراض متين ومعمول في الظاهر . ومن جديد يجد التحليل النفسي نفسه عرضة للعلامة على تعقيده الاشياء الأكثر بساطة حبا منه بالتمحك . وعلى رؤيته اسرارا ومعضلات حيث لا وجود لها ، وعلى توصله الى ذلك بتضخيمه الاشياء الثانوية الصغيرة ، التي لا نعدم نظيرها اينما اجلسنا الطرف ، وبتميله اياها اوسع الاستنتاجات واغربها . وعشا قد نردت هنا بان اطراح التحليل النفسي على هذا النحو لن يكون من نتيجه الا الغاء العديد من التشابهات المثيرة وتقطيع الكثير من الارتباطات المرهفة . مع انه كان من الممكن تسليط باهر الضوء عليها . فمناقضونا سيجيبون في هذه الحال بأن هذه التشابهات والارتباطات لا وجود لها بكل بساطة ، وانها مقحمة من قبلنا إقحاما

٢١ - سنوافق نحن انفسنا ، حين سيبحث في موضوع لم ومى حرد ذلك العهدان ، على ان تضمها كان ينبغي ان يوضع بالفاظ مالوفة وسيلة الفهم من قبل الجميع . لكن يكفينا ان نحافظ على التباس في المعنى يمكن معه استبعاد تأويلنا اليه .

ببراعة فائضة عن الحاجة .

لن اقول تمهيدا للرد على ذنبك الاعتراضين : لنلزم جانب الاستقامة او جانب الصراحة ، فهذا ما يفترض بنا ان نفعله على الدوام دونما مجهود خاص ، بل ساذهب الى ابعد من ذلك واقول: اذا كان ثمة من لا يؤمن سلفا بقيمة التحليل النفسي . فليس مثال الرسام كز . هايتزن من القرن السابع عشر هو الذي سيفنعه بها . ولا يدخل اصلا في نيتي البتة ان استخدم هذا المثال دليلا على صلاحية التحليل النفسي ؛ بل افترض بالاحرى ان التحليل النفسي معترف به ومقبول ، ثم استخدمه بعد ذلك لتوضيح سر مرض الرسام الشيطاني . وهذا الحق انما استعده من نجاح ابحاثنا حول طبيعة الاعصبة بوجه عام . اذ يسمنا التوكيد . بكل تواضع ، انه حتى اكثر معاصرينا وزملائنا في المهنة استغلاف ذهن قد طفقوا يسلمون بانه لا سبيل البتة . بدون التحليل النفسي ، الى فهم الامراض العصبية .

« هذه السهام وحدها فنحت طرودة » ، هي وحدها : هذا ما يقر به اوليسس في **فيلوكيتيس** لسوفوكليس (٢٢) .

فان صح اعتبار عهد رسامنا مع الشيطان استيهاما عصابيا . فليس لنا ان نعترض عن نظرنا اليه من الزاوية التحليلية النفسية . فالقارئان الصغرة لها ايضا مغزاها وقيمتها . وعلى الاخص متى ما كان المطلوب تحديد الشروط التي راي فيها العصاب النور . صحيح انه من الممكن التحويل او التهوين من شأنها سواء بسواء ، وانها لمسألة حصافة ان يدرك المرء مدى ما يمكن تطبيقه عليها من قيمة . لكن اذا كان ثمة من لا يؤمن بالتحليل النفسي . ولا حتى

بالشيطان ، فلا نملك الا ان ندع له مهمة معرفة ما سيفعله بقصة الرسام ، سواء الأفلع في تفسيرها بوسائله الخاصة ام لم يجد فيها ما يستاهل توضيحها .

لنعد اذن الى فرضيتنا : ان الشيطان ، الذي ينذر الرسام نفسه له ، هو في نظره بديل الاب . والشخص الذي يظهر الشيطان في صورته للمرة الاولى يتجاوب وهذه الفرضية : فهو بورجوازي محترم متقدم قليلا في السن ، ذو لحية سمراء ، ومغطف احمر ، وقبعة سوداء ، يده اليمنى تستند الى عصا ، والى جانبه كلب اسود (الصورة ١) (٢٣) . وبعد ذلك يظهر الشبح بمظهر مرعب اكثر فاكثر ، بل ربما جاز لنا ان نقول : بمظهر اكثر أسطورية ؛ فمن عدته قرون ومخالب نسر وأجنحة خفاش . وفي الاخير يظهر الشيطان في المزار في شكل تنين طائر . ولنا عودة لاحقا الى تفصيل محدد آخر من تفاصيل هيئته .

حقا انه لمن المستغرب في ظاهر الامر ان يقع الاختيار على الشيطان بدلا عن اب محبوب ؛ بيد ان ما ذلك بغريب الا للوهلة الاولى فحسب ، اذ اننا نعرف وقائع اخرى قيمية بالتخفيف من دهشتنا . فنحن نعلم اولا ان الله بديل للاب ، او بتعبير ادق اب مبدل ، او صورة عن الاب كما كان يراه المرء ويحس بوجوده في طفولته ، او الفرد في طفولته الخاصة ، او النوع البشري في الازمنة السالفة بوصفه ابا العشرة البدائية . وفي زمن لاحق نظر الفرد الى ابيه غير هذه النظرة ، فراء متضائل الاهمية بنوع ما ، لكن تلك الصورة الطفلية الاولى لبشت قائمة وانهجرت مع البقايا المتوارثة للذكرى الاب السالف لتؤلف التمثل الفردي عن الله . ونعلم ايضا ، من خلال التاريخ العميم للفرد كما يحيط عنه اللثام

٢٢ - لدى غوته بخرج الشيطان نفسه من كلب اسود من عدا النوح .

ببراعة فائضة عن الحاجة .

لن أقول تمهيدا للرد على ذنبك الاعتراضين : لنلزم جانب الاستقامة او جانب الصراحة ؛ فهذا ما يفترض بنا ان نفعله على الدوام دونما مجهود خاص ، بل ساذهب الى ابعد من ذلك واقول: اذا كان ثمة من لا يؤمن سلفا بقيمة التحليل النفسي ، فليس مثال الرسام كره هابيزمن من القرن السابع عشر هو الذي سيقتنعه بها. ولا يدخل اصلا في نيتي البتة ان استخدم هذا المثال دليلا على صلاحية التحليل النفسي ؛ بل افترض بالاحرى ان التحليل النفسي معترف به ومقبول ، ثم استخدمه بعد ذلك لتوضيح سر مرض الرسام الشيطاني . وهذا الحق انما استمدته من نجساح ابحاثنا حول طبيعة الاعصبة بوجه عام . اذ يسمنا التوكيد . بكل تواضع ، انه حتى اكثر معاصرينا وزملائنا في المهنة استفلاق ذهن قد طفقوا يسلّمون بأنه لا سبيل البتة . بدون التحليل النفسي ، الى فهم الامراض العصابية .

« هذه السهام وحدها فتحت طرودة ، هي وحدها » : هذا ما يقر به أوليسس في فيلوكتيتس لسوفوكليس (٢٢) .

فان صبح اعتبار عهد رسامنا مع الشيطان استيهاما عصابيا . فليس لنا ان نعتذر عن نظرنا اليه من الزاوية التحليلية النفسية . فانقرائن الصغرة لها ايضا مغزاها وقيمتها ، وعلى الاخص متى ما كان المطلوب تحديد الشروط التي رأى فيها العصاب الزور . صحيح انه من الممكن التهويل او التهوين من شأنها سواء بسواء، وانها لمسألة حصافة ان يدرك المرء مدى ما يمكن تعليقه عليها من قيمة . لكن اذا كان ثمة من لا يؤمن بالتحليل النفسي ، ولا حتى

بالشيطان ، فلا نملك الا ان ندع له مهمة معرفة ما سيفعله بقصة الرسام ، سواء أفلح في تفسيرها بوسائله الخاصة ام لم يجد فيها ما يستاهل توضيحا .

لنعد اذن الى فرضيتنا : ان الشيطان ، الذي ينذر الرسام نفسه له ، هو في نظره بديل الاب . والشخص الذي يظهر الشيطان في صورته للمرة الاولى يتجاوب وهذه الفرضية : فهو بورجوازي محترم متقدم قليلا في السن ، ذو لحية سمراء ، ومعتطف احمر ، وقبعة سوداء ، يده اليمنى تستند الى عصا ، والى جانبه كلب اسود (الصورة ١) (٢٣) . وبعد ذلك يظهر الشبح بمظهر مرعب اكثر فاكثر ، بل ربما جاز لنا ان نقول : بمظهر اكثر اسطورية ؛ فمن عدته قرون ومخالب نسر وأجنحة خفافش . وفي الاخير يظهر الشيطان في المزار في شكل تنين طائر . ولنا عودة لاحقا الى تفصيل محدد آخر من تفاصيل هيئته .

حقا انه لمن المستغرب في ظاهر الامر ان يقع الاختيار على الشيطان بديلا عن اب محبوب ؛ بيد ان ما ذلك بغريب الا للوهلة الاولى فحسب ، اذ اننا نعرف وقائع اخرى قيمية بالتخفيف من دهشتنا . فنحن نعلم اولا ان الله بديل للاب ، او بتعبير ادق اب مبعثل ، او صورة عن الاب كما كان يراه المرء وبحس بوجوده في طفولته ، او الفرد في طفولته الخاصة ، او النوع البشري فسي الازمنة السالفة بوصفه ابا العشرة البدائية . وفي زمن لاحق نظر الفرد الى ابيه غير هذه النظرة ، فراه متضائل الهمية بنوع ما، لكن تلك الصورة الطفولية الاولى لبثت قائمة وانصهرت مع البقايا المتوارثة للذكرى الاب السالف لتؤلف التمثل الفردي عن الله . ونعلم ايضا ، من خلال التاريخ الحميم للفرد كما يميظ عنه اللثام

٢٣ - لدى غوبه يخرج الشيطان نفسه من كلب اسود من هذا النوع .

٢٢ - فيلوكتيتس : في اليتولوجيا الاغريقية بطل من ابطال حصار

طرودة اورته هيرقليس اسمه المسومة التي لا تخطئه هدفها ، وعلى قصة حياته بنى سوفوكليس مسرحياته .

—م—

التحليل . ان العلاقات لذلك الاب كانت . وبعضا من البداية .  
نذرية . او ابنا اصبحت كذلك على كل حال في وقت مبكر ،  
معنى ابنا كانت تشتمل على تيريسين متناقضين : اي  
ليس فقط على عاطفة خضوع وحب ، بل كذلك على عاطفة عداوة  
وتحس . وهذا النزاع عينه يهيمن . بحسب رؤيتنا الامور ، على  
علاقات البشرية بالهنا . وانما بهذا النزاع الذي لا نهاية له بين  
الحنين الى الاب . من جهة اولى ، وبين الخوف والتحدي  
البنويين ، من الجية الثانية ، امكن لنا ان نفسر مناحي هامة من  
الاديان وتطورات حاسمه على صعيدها (٢٤) .

المقاييس . نعلم ان الشيطان الرجيم ينظر اليه على انه عدو  
الله وفريق الصلة للفاية بالطبيعة الالهية في آن واحد . بيد ان  
تاريخه ليس معروفا بمثل العمق الذي يعرف به تاريخ الله ،  
على اعتبار ان الاديان لم تثبت كلها ابليس الشرير . خصم الله ،  
ونموذجه في الحياة الفردية يبقى بعيدا عن الانسوار في باديء  
الامر . لكن الشيء الاكيد ان الالهة يمكن ان تغلب الى الالهة  
اشرار اذا ما دحرتها آلهة غيرها . وعندما يغلب شعب مسن  
التمسوع على امره ، فليس يندر ان تستحيل آلهته الساقطة الى  
أبالسة في نظر الشعب الغالب . لقد كان ابليس العقيدة  
المسيحية ، شيطان القرون الوسطى ، هو نفسه ملاكا ساقطاً  
بحسب الميتولوجيا المسيحية ، ومن جوهر واحد والله فسي  
الاصل . ولا حاجة بنا الى رهافة تحليلية كبيرة كيما نحرز ان الله  
والشيطان كنا متماثلين في الهوية في البداية ، شخصية واحدة  
انشطرت في زمن لاحق الى وجهين مجبو كل منهما بصفات

متعارضة (٢٥) . وفي الازمنة البدائية للأدب كان الله ذاته يتسم  
بجميع الصفات المخيفة التي عزيت في زمن لاحق الى نفيضة .  
ان هذه لسيرة نفسية معروفة لدينا جيدا . ان يتحلل  
التمثل المنطوي على سافل النزاع ليس سدين صارخي الشاين .  
لكن هذه التناقضات في طبيعته الاله البدائية هي انعكاس لارادة اجية  
التي تبين على تراتب انفراد ربه بالذات . فان يكن الله  
الرحيم والعدل بديلا للاب . فلم يأخذنا العجب اذا ما تجسد  
الموقف المتبعض . موقف الحقد والكراهة والتمرد ، في اختلاق  
الشيطان ، وعلى هذا الاساس . يكون الاب هو النموذج البدائي  
والفردى لله وللشيطان على حد سواء . ومن هذا المنطلق فبان  
الاديان لا بد ان تكون حاملة هي نفسها لآس لا يمحي خلفه فيها  
واقع ان الاب السلفى كان كائنا خبيث الطوية الى غير ما حد ،  
اشبه بالشيطان منه بالله .

من المؤكد انه ليس من السهل الى هذا الحد اكتشاف أثر  
التصور الشيطاني للاب في حياة انفراد النفسية . لكن حين  
يرسم الفلام الصغير وجوه مكشرة وكاريكاتورية ، فقد نلح في  
ان نشبت انه يميز من ابيه قبيحا ، وعندما يخاف الصبيان والبنات  
من اللصوص وقطاع الطرق ، فيوسعن بغير ما صعوبة ان تعرف  
في هؤلاء الآخرين مشتقات للاب (٢٦) . كذلك فان البهائم التي  
تظفر في اوهية الحيوان لدى الطفل هي في اكثر الاحيان بدائل  
للاب ، مثلما كان الحيوان الطوطمي بديله في الازمنة السالفة .

٢٥ - انظر ت. رايت : الله الاساسي والله الغريب . فسي ايمانفو ، ٣ ،  
١٩٢٢ ، في المعنى المون : الله والشيطان .

٢٦ - يبدو الاب الذئب في حكاية الجديان السبعة المعروفة وثانه يقترب  
جزم سرقة مع خلع .

٢٤ - بل الطوطم والناو . وسيرة من العصور . رايت : مشكلات  
علم النفس الديني . ١ ، ١٩١٩ .

لكن من النادر أن نعاين ، بدئل الجلاء الذي نعاين به لدى رسامنا المعصوب (٢٧) من القرن السابع عشر ، واقع ان الشيطان هو صورة عن الاب وبذيله . ولهذا أعربت عن املي ، في بداية هذا النص ، بان تهدينا قصة مرض شيطاني من هذا النوع الى عرق معدن خالص ليس لنا ان نحصل على نظيره من فلزات الترابطات والأعراض العصابية لعصر تال - عصر ما عاد يؤمن بباطل - المعتقدات ولكنه بات مصابا بالمقابل بهجاس المرض - اقول : ليس لنا ان نحصل على نظيره من هذه الفلزات الخام الا بمجهود تحليلي شاق (٢٨) .

وأغلب الظن ان اقتناعنا هذا سيعزز أكثر بعد اذا ما تعمقنا في تحليل مرض رسامنا . فليس ثمة من شيء خارق للمألوف اذا ما عانى شخص من الأشخاص ، على أثر وفاة والده ، هبوطا سوداويا وكفا عن العمل . وسنتنتج في هذه الحال انه كان يكنّ لذلك الاب حبا جما ، وسنتذكر كيف تتظاهر سويداء حادة في كثير من الاحيان كتعبير عصابي عن الحداد . ولن تكون في هذه الحال الا على صواب ، لكن بشرط الا

٢٧ - المعصوب Névrosé : المصاب بالعصاب . -

٢٨ - لكن لم نتلق الا فيما ندر في تحليلنا في انتشاف الشيطان كبديل للاب ، فلعل مرد ذلك الى ان هذا الوجه من وجوه ميتولوجيا القرون الوسطى ما عاد منذ زمن يلعب دوره لدى الأشخاص الذين يقصدوننا لتحليلهم . اما في سطر مسيحي القرون الماضية الروع ثاب الإيمان بالشيطان كال واجب لا يقل إلزامه عن الإيمان بالله . فقد كان بحاجة الى الشيطان فيما يتمكن من مواجهة الله . ولما تناقص الإيمان في زمن لاما ، ولإسباب شتى ، اساب اول ما اساب سحس الشيطان ، ولو اسلكنا الجراة على طبيعى فانه الشيطان كبديل عن الاب على تاريخ الحضارة . لاساعد ما محاميات المسحرة في العصر الوسيط ان تنظر اليها نظرة جديدة .

نستنتج من ذلك ان تلك العلاقات كانت منسوجة من حب خالص . بل على العكس : فالحداد على فقدان الاب سيتحول بسهولة اكبر الى سويداء اذا ما كانت العلاقات به تنسم بسملة الازدواجية . ونحن . بتشديدنا للهجة على هذه الازدواجية - نهيء انفسنا لفهم عملية الانتقال من قدر الاب ، كما يفصح عنها عصاب الرسام الشيطاني . ولو كان متاحا لنا ان نجعم من المعلومات عن شخص كره . هايتزم بقدر ما نجعم منها عن مريض من مرضانا الذين نقوم بتحليلهم ، وان كان امكن لنا بيسر وسهولة ان نتبحر في تلك الازدواجية ، وان نحمل المريض على ان يتذكر من جديد متى وفي اية مناسبة دعاه الداعي الى ان يخشى جانب ابيه وييفضه ، ولكان امكن لنا بوجه خاص ان نكتشف العوامل الطارئة التي انضافت الى العوامل النمطية لكراهية الاب ، هذه العوامل التي تكمن جذورها حتما في العلاقات الطبيعية بين الاب والابن . ولعلنا كنا سنجد على هذا الاساس تفسيراً خاصاً للكف عن العمل . ومن المحتمل ان يكون الاب في هذه الحال قد عارض رغبة ابنه في ان يصير رساما ؛ ومن ثم فان العجز الذي انتاب هذا الأخير ، غداة وفاة والده ، عن مزاولته ليس ، من جهة اولى ، سوى تظاهر للطاعة المرجاة - وهذه ظاهرة معروفة جيدا - كما ان هذا العجز الذي سد في وجه الابن سبل تدبر معاشه وقوت يومه قد زاد ، من الجهة الثانية ، من تحصره على الاب بصفته حاميا من هوم الحياة . ثم ان هذا العجز ، بوصفه طاعة متاخرة ، تعبير عن تبكيت الضمير وقصاص ذاتي بالغ النجع .

بالنظر الى تعذر اخضاع كره . هايتزم ، المتوفى سنة ١٧٠٠ ، لمثل هذا التحليل ، فلا مناص لنا من الاقتصار على تسليط الضوء على خصوصيات قصة مرضه القمينة بان تزودنا بتوجيهات بصدد المطلقات النمطية لوقف عدائي حيال الاب . وهذه الخصوصيات ليست بالكثيرة عددا ، كما انها ليست ملفنة كثيرا للنظر ، ولكنها

عظيمة الفائدة .

بدأي ذي بدء دور العدد ٩ . فالعهد مع الشيطان معهود  
لتسع سنوات . ورواية خوري بوتنبرون الجديرة بالتصديق بلا  
حدان تصحح من ذلك ونسوح . Pro Novem Annis Syngraphen  
Scriptam Tradidit . (٢٩) . ورسالة التوصيسية هذه .  
المؤرخة في ١ أيلول ١٦٧٧ ، تدلنا ايضا على ان الاجل سينقضي  
في غضون بضعة ايام : Quorum Et Finis 24 Mensis Hujus  
Futurus Appropinquat (٣٠) . وعلى هذا يكون العهد قد وقع  
في ٢٤ أيلول ١٦٦٨ (٣١) . ويرد ذكر العدد تسعة في هذه الرسالة  
مرة أخرى ايضا : Nonies - تسع مرات - أي ان الرسام قاوم  
تسع مرات كما يزعم تجارب الشيطان قبل ان يسقط . وهذا  
التفصيل لن يرد له ذكر في الروايات اللاحقة . وقد جاء ايضا في  
شهادة رئيس المدير Post Annos Novem (٣٢) . ويرد  
التاسخ في نبذته Ad Novem Annos (٣٣) ، مما يدل على ان هذا  
العدد لم يعتبر مما لا يعتد به .

ان العدد تسعة مأوف لدينا في الاستيهامات العصابية . فهو  
عدد شهور الحمل ، وهو يوجه انتباهنا على الدوام ، حال ظهوره ،  
الى تخييل يتعلق بالحمل . صحيح ان الكلام يدور ، بالنسبة الى  
رسمنا ، عن تسعة أعوام لا عن تسعة شهور ، وقد يقال ايضا ان

٢٩ - باللاتينية في النص : «وسمه صكا مكتوباً، أجله تسع سنوات». -م-

٣٠ - باللاتينية في النص : «سينتهي الاجل في ٢٤ من الشهر الجاري». -م-

٣١ - سنهت فيما بعد بالتناقض الممثل في ان المهدين يحملان تاريخا  
واحدا هو سنة ١٦٦٩ . -م-

٣٢ - باللاتينية في النص : «بعد تسع سنوات». -م-

٣٣ - باللاتينية في النص : «لتسع سنوات». -م-

العدد تسعة هو بحد ذاته عدد ذو مغزى ودلالة . ولكن مما  
يدرنا ان العدد تسعة ، بوجه عام ، لا يدين بنفسط كبير ممن  
حظوته لدوره في الحمل ؟ ونيس لتحويل الشهور التسعة الى  
سنوات تسع ان يضلنا عن سواء السبيل . فنحن نعرف من الحلم  
كيفان «نشاطنا النفسي الاشعوري» يتصرف على هواه بالاعداد.  
فان صادفنا في حلم من الاحلام العدد خمسة ، على سبيل المثال،  
فلا بد ان نرجعه في كل مرة الى عدد «خمس» له اهميته في  
حياة اليقظة ، فالمقصود في الواقع خمس سنوات كفارق فسي  
السن ، او شركة من خمسة اشخاص ، لكن هذه الخمسات تنبدي  
في الحلم في شكل خمس ورقات نقدية او خمس ثمار . اذن  
فالعدد يبقى هو هو ، لكن ما يدل عليه هو انذي يتغير تبعاً لحاجات  
الانكشاف واسفل في الحلم . وتسع سنوات في الحلم يمكن بسهولة  
ان تقابل تسعة شهور في الواقع . ويتصرف عمل الحلم بارقام  
حياة اليقظة بطريقة أخرى ايضا ، اذ يضرب صفحا . وبلامبالاة  
مطلقة ، عن الاصفار ، ولا يعتبرها اعدادا . وعلى هذا فمن  
خمس دولارات في الحلم يمكن ان تمثل خمسين دولارا او  
خمسئة او خمسة آلاف دولار في الواقع .

ونمة نقطة تفصيلية أخرى في علاقة الرسام بالشيطان تردنا  
بدورنا الى الجنسية Sexualité . فقد رأى الشيطان لأول  
مرة ، كما أسلفت الإشارة ، في صورة بورجوازي محترم . لكن  
سرعان ما تبدى له الشيطان ، في المرة الثانية ، عاريا ، شائمه  
الشكل ، وله نديا امرأة . وفي كل ظهور من ظهوراته التالية  
سيكون له زوج او اكثر من الانداء . وفي واحد من هذه المظهرات  
فقط سيحمل الشيطان ، علاوة على الانداء ، قضيبا ضخما له  
نهاية لعبانية . وهذا الاحاح على تمييز الجنس المؤنث بأنساء  
جسيمة ومتدلية (لا إشارة هناك علسى الاخلاق الى الاعضاء  
التناسلية المؤنثة) قد يبدو متناقضا تناقضا صارخا مع فرضيتنا

القائلة بأن الشيطان هو لرسامنا بديل عن الأب . والحق ان مثل هذا التمثيل للشيطان هو بعد ذاته غريب ومخالف للمألوف . صحيح انه حينما يفدو «ابليس» مفهوما من مفاهيم النوع ، وانه حين يظهر بالتالي عدد كبير من الابالسة ، فلا عجب ان وجدنا بعض هذه الابالسة وقد صورت في صورة اناث ؛ لكن بخيل الي ان «ابليس» ، بشخصيته البارزة والقوية وبكونه سيد الجحيم وعدو الله ، لا يمثل ابدا الا ذكرا ، بل اكثر من ذكر ، بقرون وذنوب وقضيب ثعباني كبير .

بيد انه باستطاعتنا ، بالاستناد الى تينك القرنيتين البيطليتين ، ان نحذر ما العامل النمطي الذي يشرط الجانب السلبي من علاقات الرسام بابه . فما يصارع ضده انما هو الموقف المؤنث ازاء هذا الاب ، وهو موقف يدرك نقطة أوجه في تخيل انجاب طفل منه (تسع سنوات) . وغالبا ما تلقي في تحاليلنا هذه المقاومة التي تتخذ اشكالا مثيرة للاستغراب في التحويل Transfert وتنصب في وجهنا عقبات لا يستهان بها . وهاهوذا رسامنا وقد نشط لديه من جديد ، تحت تأثير حداده على ابيه الفقيد وحينه المتعاطف اليه ، تخيل الحمل الذي كان قد كبته منذ زمن بعيد ، فعااد امامه من وسيلة للذود عن نفسه ازاء هجمة هذا التخيل سوى العصاب والانتقاص من قدر الاب .

لكن لماذا يحمل هذا الاب المخطوط الى دور ابليس صفات المرأة الجسمانية ؟ ان هذه السممة تبدو للوهلة الاولى عسيرة التاويل ، لكن سرعان ما يحضر امامنا تفسيران يزاحم واحدهما الآخر ، وان كانا لا يتنافيان . فالوقوف المؤنث من الاب ضرب عليه نطاق من الكبت حالما ادرك الصبي الصغير ان منافسة المرأة على حب الاب شرطا ، وهو التخلي عن عضو ذكوره ، اي الخصاء . وعلى هذا يكون نبذ الموقف المؤنث نتيجة الصراع ضد الخصاء ،

وهو يجد قياسيا اقوى تعبير له في التخيل المعاكس : خصاء الاب نفسه وتحويله الى امراء . وعلى هذا الاساس تكون انداء ابليس بمثابة إسقاط لانوثة الابن على اندل الانثوي . اما ، فمفسر الثاني لهذه الصفة الجسمانية من سمات ابليس فمطلقته هي لا عدائي ، وبموجبه يكون هذا الشكل فرسة على ان الحب الطفلي للام قد حوّل الى الاب وانه ينطوي بالتالي على تثبيت اموي سابق قوي ومسؤول الى حد ما عن العداء ازاء الاب . وما الانداء الثمانية الا علامة ايجابية على جنس الام . وهذا في زمن لا يعرف فيه الطفل بعد السممة السلبية للمرأة . اي غياب القضيبي (٢٤) .

ان كان النور من القبول بالخصاء قد جعل من المتعذر على رسامنا ان يتحرر من حنينه الى الاب ، فمفسر علينا في هذه الحال ان نفهم ان يكون قد قصد صورة الام طلبا للعلن والخلص . ولهذا يصرح ان والدته الله القديسة الماريازية هي وحدها القادرة على تخليصه من العهد الذي تعهد به لإبليس ، وفي يوم ميلاد المذراء (٨ ايلول) يغور بالفعل بالخلص . ولن يقبض لنا ابدا بطبيعة الحال ان نعرف ان لم يكن اليوم الذي عقد فيه العهد ، ٢٤ ايلول . يوما له مدلوله القدسي الخاص هو ايضا .

ولعل اكثر ما يقابى بالنفور وعدم التصديق من الراشد السوي في افتراضات التحاليل النفسي عن حياة الطفل النفسية هو الموقف المؤنث للنصي الصغير من الاب ، وتخيل الحمل الذي يترتب عليه . وان صار في مقدورنا ان نتكلم عن هذا الموقف بلا مراعاة وبلا حاجة الى طلب مسوغات له الا منذ ان نشر رئيس المحكمة العليا في اقليم ساكس ، دانييل بول شيرير

٢٤ - غار . - ذكرى من طفولة ليوناردو دافنشي ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤ .



Schreber ، قصة مرضه الذهاني وشفائه شبه النام (٢٥) .  
وقد اتاح لنا نشر هذا الكتاب الثمين الاطلاع على ما يلي : فقد  
ساور السيد رئيس المحكمة العليا . وهو في حوالى الخمسين من  
العمر . يقين مطلق بأن الله - المتسم باسمت السبله اسعر  
لوالد الرئيس . الطبيب المحترم الدكتور شريب - قد أبرم قراره  
بأن يخصه وبأن يعامله كامراه وبأن يستولده بشرا جددا من  
طينة آل شريب (وكان هو نفسه بلا اولاد من زواجه) . وتحت وطأة  
الصراع الذي خاض غماره ضد نية الله تلك - التي بدت له ظالمة  
مجحفة بقدر ما هي «معاكسة لنظام الكون» ، ستط مريضاً ، وظهّرت  
عليه جميع أعراض الذهان الهذاني Paranoia الذي ما لبث  
ان خفت حدته مع مر السنين حتى لم يبق منه سوى رسابة  
طفيفة . وبديهي ان كاتب قصة مرضه ما كان ، على نباهته ،  
ليشتبه بأنه يكشف فيها عن عامل نمطي من عوامل نشوء الامراض  
النفسية .

هذا التفور من الخضاء او من الموقف المؤث سلخه الفريد  
آدلر (٢٦) من سياقه العضوي وأرجعه ، من خلال علاقات سطحية  
او كاذبة ، الى ارادة القوة ، وسادر على انه ميل مستقل عمده  
باسم «الاحتجاج الذكوري» . لكن بما ان العصاب لا يمكن ان  
ينشأ الا عن نزاع بين ميلين ، فمن الموسوع لنا ان نرى علة «جميع»

٣٥ - د.ب. شريب : مذكرات مريض عصبي ، لايبزغ ١٩٠٧ . فان مع  
تحليلي لحالة شريب : ملاحظات تحليلية نفسيه حول السيرة الذاتية لصابه  
بالذهان الهذاني . في المجلة الفرنسية للتحليل النفسي . ١٩٣٢ . الاسدار ١ .  
٢٦ - ألفريد آدلر : طبيب وعالم نفس نمسوى . ١٨٧٠ - ١٩٣٧ . بد احد  
اكبر انشقاقين عرفتهما حركة التحليل النفسي . وونسمع مذنب غم الناس  
الفردى والطبى .

—٣—

الاعصبة في الاحتجاج الذكوري كم في الموقف المؤث اندي هو  
موضوع هذا الاحتجاج . ولا مراء في ان للاحتجاج الذكوري دورا  
مطردا في تكوين الطبع . وهو دور بانغ الهمية في بعض  
الانماط ، كما لا مراء في ان الاحتجاج المشار اليه ينتصب امامنا  
في تحليل المعصوبين من الرجال ، في صورة مقاومة عنيفة .  
ويقيم التحليل النفسي الاحتجاج الذكوري بحق قيمته بدالة  
عقدة الخضاء ، من دون ان يكون في وسعه ان يثبت كلية قدرته  
او كلية حضوره في الاعصبة . ومن بين جميع حالات الاحتجاج  
الذكوري المتظاهر في جملة من ردود الافعال والسمات الطبيعية  
البيئة ، كانت أبرز الحالات التي استدعت تدخلها حالة عصاب  
وسواسي امكن فيها للنزاع غير المحلول بين الموقف المذكور والموقف  
المؤث (خوف الخضاء ولذة الخضاء) ان يعبر عن نفسه بوضوح  
وجلاء . زد على ذلك ان العلاج كانت تتناهى استيهامات مازوخية  
تتجه جميعها باتجاه الرغبة في القبول بالخضاء ، ولقد وصل به  
الامر ، تحت دفع هذه الاستيهامات ، الى طلب اشباع مادي لها  
بطريقة شاذة . وكانت حالته في جملتها تقوم - شأنها اصلا شأن  
نظرة آدلر - على اساس من الكبت ونفي التثبيتات الحبية العائدة  
الى الطفولة الاولى .

لقد وجد الرئيس شريب سبيله الى الشفاء حين قر عزمه على  
العزوف عن مقاومة الخضاء وعلى الارتضاء بالدور المؤث اندي  
قيّضه الله له . فساوره عندئذ شعور بالهدوء والصفو والطمأنينة ،  
واستطاع ان يطلب وان يحقق بنفسه خروجه من المصح العقلي ،  
وان يحيا حياة سوية ، وذلك باستثناء النقطلة اليتيمة التالية :  
وهي تكريسه بضع ساعات من كل يوم لشؤون انوثته ، وقد  
رسخ لديه الاقتناع بأن التقدم المؤيد لهذه الاخيرة سيدرك لا محالة  
الهدف الذي عيّنه له الرب .

## العهدان

تنطوي قصة رسامنا على تفصيل فريد مثير للانتباه . يتمثل في تصريحه بأنه عقد مع ابليس عهدين مختلفين .  
وقد نص العهد الاول . المكتوب بالحبر الاسود . على ما يلي :

«انا الموقع ادناه . كره . ه . . . أنذر نفسي لهذا السيد وكانتني ابنه من صلبه لمدة سبع سنوات» .  
اما نص العهد الثاني . المحرر بالدم . فكما يلي :  
«كره . ه . . . اعهد بنفسى كدية الى هذا الشيطان .  
واعدا بان اكون ابنه من صلبه ومن اكون بعد تسبع سنوات ملكا له جسدا وروحا» .

والنسختان الاصليتان لهذين العهدين كانتا موجودتين بطبيعة الحال ، لدى تحرير **التذكار** ، في محفوظات دير ماربازل ؛ وكانت كلاهما تحملان تاريخا واحدا هو سنة ١٦٦٩ .  
لقد اتيت بذكر هذين العهدين تكرارا ، وسوف اوليها الان مزيدا من الاهتمام . وان يكن خطر المبالغة في التدقيق فسي التفصيل يبدو هنا كبيرا فعلا .

انه لامر غريب ان يندر شخص نفسه لابليس مرتين . وعلى نحو يحل معه العهد الثاني محل الاول من دون ان ينسخه ويحطل مفعوله . ولعل من الف قصص ابليس واعتاها . ان تأخذ الدهشة التي اخذتنا . ولكني لا املك : من جانبي . الا ان ارى في ذلك سمة تنفرد بها الحالة التي هي موضوع بحثنا . ولقد ساورني الشك حين لاحظت ان هذه النقطة هي بالتحديد النقطة

التي لا تتفق حولها الروايات . والحال ان دراسة هذه التناقضات ستقودنا على نحو لاموقع الى تفهم اعطق لحالته مريضنا .

ان الامر ، بموجب رسالة التوصية الصادرة عن خوري بوتنبرون : ليو بهنتهى البساطة والوضوح . فهي لا تذكر سوى عهد واحد كتبه الرسام بالدم قبل تسع سنوات وكان يفترض فيه ان يحين اجله في غضون بضعة ايام . في ٢٤ ايلول ؛ وعليه فان هذا العهد قد حرر في ٢٤ ايلول ١٦٦٨ ؛ لكن هذا التاريخ ، الذي نستطيع استنتاجه بيقين ، لم يرد له ، مع الاسف ، ذكر صريح .

وبالمقابل فان الامر يبدو اشد تعقيدا بموجب شهادة رئيس الدير فرانسيسكوس المؤرخة . كما نعلم ، بعد بضعة ايام (في ١٢ ايلول ١٦٧٧) . ولا بد لنا من التسليم ، بناء عليها ، بان الرسام قد ادلى في غضون ذلك بمعلومات اكثر تفصيلا . فقد جاء في الشهادة المذكورة ان الرسام وقع عهدين ، الاول في ١٦٦٨ (وذلك كما هو مفروض بالفعل بموجب رسالة التوصية) ، وقد حرر بالحبر الاسود ، والثاني في **السنة التالية ١٦٦٩** (٢٧) ، وقد حرر بالدم . والعهد الذي اعيد اليه يوم ميلاد المذراء كان العهد الذي كتب بالدم ، اي العهد الثاني المقود سنة ١٦٦٩ . وهذا لا يستبان من شهادة رئيس الدير ، اذ كل ما جاء فيها بصدد ذلك هو فقط ما يلي : Schedam Redderet : (٢٨) و Schedam Sibi Porrgentem Conspexisset (٢٩) ، وكان الامر لا يبدو ان يكون امر صك واحد . ولكن ذلك يستبان من تمة القصة ، وكذلك من عنوان **التذكار** الملون الذي تشاهد فيه بوضوح الكتابة

الحمراء على الصك الذي يمسك به التنين الشيطاني . وكما تقدم بنا القول سارت الامور لاحقا على الوجه التالي : فقد رجع الرسام في ايار ١٦٧٨ الى ماريانز ، بعد ان تعرض في فيينا لهجمات جديدة من قبل ابليس ، وقدّم التماسه الذي طلب فيه ان تعاد اليه ، بشفاعة جديدة من العذراء القديسة ، الوثيقة الاولى المكتوبة بالحبر . والطريقة التي تم بها ذلك لم توصف هذه المرة بالتوسع الذي وصفت به في المرة الاولى . فقد ورد القول فقط *qua iuxta votum Reddita* (٤٠) ، وفي موضع آخر يروي الناسخ ان هذا العهد عينه «المدعوك والمزعق الى اربع» رمى به الشيطان الى الرسام ، في ٩ ايار ١٦٧٨ ، في حوالي الساعة التاسعة مساء .

بيد ان العهدين يحملان كلاهما تاريخا واحدا : سنة ١٦٦٩ . فلما ان هذا الاختلاف لا يعني شيئا على الاطلاق ، ولما ان يحملنا على التفكير على النحو التالي :

اذا اعتبرنا ان بيان رئيس الدبر هو الاكمل ، نهضت امامنا إشكالات شتى . فحين اعترف كر. ه... لخوري بوتنبرون بأنه فريسة للملاحقات ابليس وان أجل الاستحقاق بات وشيكاً ، ما كان من الممكن ان يذهب به الفكر (في سنة ١٦٧٧) الا الى العهد المعقود سنة ١٦٦٨ ، اي العهد الاول ، الحرر بالاسود (وهو العهد الذي لا تشير رسالة التوصية الى صك سواه، وان نعتته بأنه مكتوب بالدم) . غير انه لم يعد له من هم بعد بضعة ايام ، في ماريانز ، الا ان يحصل من جديد على الثاني ، المكتوب بالدم ، والذي لم يحضر بعد أجل استحقاقه (١٦٦٩-١٦٧٧) ، من دون ان يبالي باستحقاق أجل الاول . وهذا العهد الاول لا يعود الى المطالبة به الا في سنة ١٦٧٨ ، اي في السنة العاشرة من عقده . ثم ما علة تأريخ العهدين

كليهما بسنة واحدة هي سنة ١٦٦٩ . مع ان واحدهما معسزو بعبارة صريحة الى «السنة التالية» (٤١) ؟

يبدو ان الناسخ احس بهذه الاشكالات ، فحاول تذليلها . ففي مدخله يتفيد ببيان رئيس الدبر ، لكنه يعمله في نقطة واحدة . فهو يقول ان الرسام عقد في سنة ١٦٦٩ مع الشيطان عهدا كتب بالحبر . وبعد ذلك *Deinde Vero* ، بالدم . وبضرب صفحا عن المعطيات الشكلية للروايتين - بموجب هذه المعطيات يستحق اجل احد العهدين في سنة ١٦٧٨ - كما يفض النظر عن الملاحظة التي وردت في شهادة رئيس الدبر من ان تاريخ السنة قد تبدل بين توقيع كلا العهدين ، كيلا يخالف التاريخ الذي يحمله الصكان اللذان اعادهما ابليس .

فسي شهادة رئيس الدبر ، وبعبارة : **فسي السنة التالية ١٦٦٩** ، وردت بين قوسين هذه الفقرة : *Sumitur Hic Alter Annus Pro Nondum Completo Ut Saepe In Loquendo Fieri Solet, Nam Eundum Annum Indicant Syngraphae Quarum Atramento Scripta Ante Prae-* . *sentem Attestationem Nondum Habita Fuit.* (٤٢) .

وهذه الفقرة تدليس لا مربة فيه من جانب الناسخ ، لان رئيس الدبر ، الذي لم يقع بصره الا على صك واحد ، لا يستطيع ان يشهد على انهما يحملان كلاهما تاريخا واحدا . ويبدو على كل حال ان الغرض من استعمال القوسين هو الإشارة الى ان ما بينهما

٤١ - باللاتينية في النص : *Anno Subsequenti* - م-

٤٢ - باللاتينية في النص : «هذه السنة الاخرى تعتبر غير مكتملة بعد كما دوجت العادة على القول ، لان الصكين ، اللذين لم يحجرا بالحبر قبل هذه الشهادة ، يشيران الى سنة واحدة» . - م-

٤٠ - «فمايد اليه حسب طلبه» . - م-

انسابه من خارج الشهادة . وهذه الانساب المنضمة بين قوسين هي بمثابة محاولة أخرى من جانب الناسخ لتدليل انشقاقات انسابهم . فلا سمح لي ان اعدا الأخير ان عهد الرسام الأول قد عند فعلا في سنة ١٦٦٨ . ولكن بما ان السنة كانت قد عذمت كثيرا اشهر ابول . فلا بد ان الرسام قد سبق تاريخه بسنة واحدة . وهكذا بات للعهدين كليهما تاريخ واحد . وكونه قد ابرح لنفسه اللجوء الى ما درجت العادة على اللجوء اليه في كثير من الاحيان في التقادير الشفهية يجعل كل هذه المحاولة التفسيرية باطللة من الاساس . وهي لا تعدو بالاصل ان تكون ضربا مسن التملص السريع .

لست ادري ان كان عرضي هذا قد ترك اثرا في القاريء وحمله على الاهتمام بهذه التفاصيل . ولقد كان يخيل الي انه من المستحيل إعادة وضع الامور في نصابها على نحو لا ريب فيه . لكنني توصلت ، وأنا ادرس هذه القضية المختلطة . الى افتراض من شأنه ان يهدينا بصورة طبيعية تماما الى الكيفية التي حدثت بها الامور ، حتى وان تكن الشهادات المكتوبة لا تنفق البتة وإياها . فانا اعتقد انه حين قدم الرسام الى ماريازل للمرة الاولى لم يتكلم الا عن عهد واحد . حرر بالدم بحسب ما كان متبعا ، وكان مغرورا به ان يستحق اجله قريبا ، فهو بالنسبة قد عقد فسي ابول ١٦٦٨ ، تماما كما جاء القول في رسالة التوصية الصادرة عن الخوري . وفي ماريازل ابرز ايضا عهد الدم هذا بوصفه العهد الذي اعاده اليه انيس بارغام من الام الغديسة . ونحن نعلم ما حدث بعد ذلك . فسرعان ما نرد الرسام المحج وقصد فيينا حيث شعر بالفعل انه قد قرع عنه ابني منتصف تشرين الاول . لكن عندئذ عاودته الآلام والنزوي التي عزاها الى مساعي الشيطان .

في الارزاقه ديس . . . . .

يشف : الا يلقي استقبالا حسنا في ماريازل . وتخلصا من هذه الورثة تخيل عهدا ابتداليا ، سابقا . كتب بالحبر . وذلك كيما يبدو معقولا ان هذا العهد قد طغى عليه في الاهمية عهد آخر ، لاحق . حرر بالدم . ولدى عودته الى ماريازل استرد هذا العهد الاول المزعوم . وعندئذ تحرر حفا من الشيطان . لكنه فعل في الوقت نفسه شيئا آخر .

فالشيء المؤكد انه في انشاء هذه الإقامة الثانية في ماريازل انجز الرسوم ؛ فصفحة العنوان . الرسومة دفعة واحدة . تشمل على تمثيل مشهدي العهد . ومن الممكن ان يكون الرسام قد عانى حرجا شديدا في محاولته التوفيق بين تصريحاته المتضادة والسابقة . ولقد كان من سوء حظه انه ما وسعه ان يتخيل سوى عهد سابق لا عهد لاحق . فبذلك ما عاد يملك وسعا ان يحول دون حصول الإشكال المخرج : استرداده في وقت مبكر اكثر ممسا ينبغي احد العهدين . العهد المكتوب بحروف من دم (في السنة الثامنة . واسترداده الثاني . المحرر بحروف سود . في وقت متأخر اكثر مما ينبغي (في السنة العاشرة . وثمة قرينة تسم عن تحريره على دفتين ؛ فقد اخط في ترديد العهدين وجعل تاريخ العهد الاول في سنة ١٦٦٩ اعضا . ولهذا الخط مدلول صراحة غير مقصودة : وهو ينبغي لنا ان نحزر ان العهد السابق المزعوم جعل استحقاقه لاجل ابعده . ولم يكن امام الناسخ مناص . وهو الذي لم يطلع على الموضوع الا في سنة ١٧١٤ . بل ربما في سنة ١٧٢٩ . من ان يبدل قصاراه لواراة هذه الساقضات بقدر الامكان ، على ما لها من اهمية . وبما ان العهدين الذين كانا امامه كانا يحملان كلاهما تاريخ ١٦٦٩ . فقد حاول التملص من الورثة عن طريق محاولة التفسير المتباينة التي ادرجها في شهادة رئيس الدين .

ويسير على القاريء ان يدرك اين وجه الضعف في اعادتنا

المفزية هذه لماجريات القصة . فذكر العهدين ، اللذين واحدهما بالاسود وثانيهما بالدم الاحمر ، قد ورد في شهادة رئيس الدير فرانسيسكوس . ومن ثم كان لي ان اختار بين واحد بين اثنين: إما الافتراض بان الناسخ قد اُجرى تعديلا ما في هذه الشهادة . وهذا بالاترابط الوثيق مع مسعاه التديليسي ، وإما الاعتسراف بانني لست أهلا للاهتمام الى خيط الحقيقة في هذه البلبلة (٤٢) .

٤٣ - يغفل الي ان الناسخ وجد نفسه محصورا بين نقطتين ثابتتين . فمن جهة اولى وجد رسالة التوسية الصادره عن الخوري وسجادة رئيس الدير تضاعف كلاهما على ان العهد اُعلى من حال الاول . قد كتب في سنة ١٦٦٨ ٢ ومن الجهة الثانية كان العهدان ، المحفوظان في مجموعات الغير . يحملان كلاما نوح ١٦٦٩ . وبما انه كان امام عينيه عهدان . فقد داخله اعتقاد واسخ بأن ثمة عهدين قد جرى تحريرهما . ولئن لم يرد ذكر في شهادة رئيس الدير . انما افترض اما . الا العهد واحد . فقد وجد الناسخ نفسه مرعبا على ان يقدم عن شهادة الشهادة ذكر العهد الثاني ، وتضمن من النماذج اقرب الى هذا الاخير قد سبق تاريخه . والتعبير الذي اُخذ في النص يأتي مباشرة بعد الاضافة التي ما كان لاحد سواء ان يدسها على النص . وتدلنا وجد نفسه مكرها على ان يجمع بينه وبين الناسخ بين الاضافة التي اُضيفها على

#### Sequenti Vero Anno 1669

النص وبين التعديل الذي اجراه فيه . لان الرسام كان قد كتب خراج العبارة في التشرح المرافق للصورة والذي اُحق به تلف شديد :

مد سنة واحدة ...

يعرض لهديد شديد ...

الصورة رقم ٣ ، واضطر ...

الى التوقيع بالدم ...

والخط الذي اوتكيه الرسام حين اُخذ العهد . والذي اُرفعت على التقييم بهذه المحاولات النفسية ، لا يبدو لي اقل اثاره الإهمال من عقده نفسيهما.

ولا ريب في ان كل هذه المناقشة قد بدت للقارئ منذ زمن غير يسير فائضة عن الحاجة ، مثلما بدت له التفاصيل المدروسة واهنة الفائدة . لكن الامر يتلبس اهمية جديدة عندما نتابعه في اتجاه معين .

قلت توأ ، بصدد الرسام ، انه تخيل ، وقد باغته مسمار مرضه بما يكره ، عهدا سابقا (العهد المكتوب بالحبر) ليتمكن من تبرير موقفه لدى رهبان ماريازل . والحال انني اكتب برسم قراء لا يؤمنون بإبليس ، وان كانوا يؤمنون بالتحليل النفسي ، ومن ثم فانهم قد ينكرون على سخافة توجيه مثل هذا اللوم الى ذلك الرسام المسكين الذي تنعته رسالة التوسية اصلا بـ «الرجل البائس» . فالعهد المكتوب بالدم كان ولا بد خياليا ، مثله مثل العهد السابق المزعم المكتوب بالحبر . وواقع الحال انه لم يظهر له اي شيطان ، وكل العهد مع ابليس لم يكن له من وجود الا في مخيلته . وانا اوافق على ذلك ، وليس لاحد ان ينكر على ذلك المسكين الحق في تكملة استيهامه ابدياني بأخر لاحق ، متى ما بدا ان الظروف المستجدة تستوجب ذلك .

لكن هنا ايضا لا بد لنا ان نرى الى ابعد . فالعهدان ليسا بالفعل من استيهام نظير رؤى الشيطان ؛ بل كانا وثيقتين محفوظتين ، بحسب تأكيد الناسخ ، وبحسب شهادة رئيس الدير كيليان لاحقا ، في محفوظات ماريازل . وكان يوسع جميع الناس رؤيتهما ولمسهما . يواجها اذن هنا إحراج . فيما ان نسلح بان الرسام اختلق بنفسه في الوقت المرام ، وعند احتياجه اليهما ، الصكين اللذين اعيدا اليه على ما قيل لنا بشفاقة ربانية، وإما ان نعتبر السادة رهبان ماريازل وسان لامير غير أهمل للتصديق رغم كل التوكيدات الرسمية وشهادات الشهود المختومة بالأختام ، الخ . واني لاقرب بانه ما كان لي الا بمشقة وعسر ان أشتبه في الرهبان . صحيح انني اميل الى التسليم بان الناسخ اُجرى بعض التزوير في شهادة رئيس الدير الاول حرصا

منه على توافق النصوص ، لكن هذا «العمل الانشائي الثاني» لا يتعدى حدود الفعّال المشابهة للمؤرخين المحدّثين والعلمانيين ، وقد فعل على كل حال عن خلوص نية . ولقد استأهل ائرهان في ظروف اخرى حقاً مبرراً في أن نمحضهم نقتنا . وقد اسلفت القول انه ما كان ثمة ما يمنعهم من حذف الروايات المتعلقة بالشفاء غير الكامل وبمواصله الشيطان تجاريه . كذلك فإن وصف مشهد التعزيم في المزار ، الذي كان من الممكن أن نخوف من الشطط فيه ، مروي ببساطة واعتدال وبظاهر من الحق . لذا لا يبقى امامنا الا ان نوجه اصبع الاتهام الى الرسام . فقد كان هذا الأخير يحمل معه ولا بد العهد المكتوب بحروف حمراء قصد المزار لأداء فعل توبته فيه ، وقد أبرزه حين أرند نحو السجود من الرهبان بعد لقائه بإيليس . وما من ضرورة تقضي ايضاً بأن يكون هذا الصك هو عينه الذي جرى الاحتفاظ به لاحقاً في المحفوظات؛ وبحسب اعادة بنائنا للقصة فإن هذا الصك الاول كان يمكن أن يكون حاملاً لتاريخ ١٦٦٨ (قبل تسع سنوات من مشهد التعزيم) .

- ٥ -

## العصاب اللاحق

لكن كل ما تقدم لن يعدو غي هذه الحال ان يكون ضرباً من النفس ، لا من العصاب ، كما لن يعدو الرسام ان يكون مزوراً ومتظاهراً ؛ لا ممسوساً ؛ بيد ان الحدود بين العصاب والتظاهر، كما هو معلوم ، غامضة . وأنا لا أجد أي صعوبة ايضاً في التسليم بأن الرسام كتب وحمل ذلك الصك ، والوثائق التي تلت ، وهو في حالة خاصة شبيهة بحالة رؤاه . وبالفعل ، ما كان له ان يسلك

غير هذا المسلك اذا شاء ان يجعل لتخليسه العهد مع الشيطان ثم الخلاص منه اساساً من الواقع .

وبالمقابل ، فإن اليوميات التي حررها في فيينا ، والتسبي سلمها للرهبان عند نزوله للمرة الثانية في ماريابل ، تحمل طابع الصدق والحقيقة . وتبيح لنا هذه الوثيقة ان نلقي نظرة عميقة ونافذة على حافز العصاب ، او بتعبير أدق على تثيره واستغلاله . تمتد التعليقات من زمن التعزيم الذي حقق هدفه الى يوم ١٥ كانون الثاني من السنة التالية ١٦٧٨ . وحتى الحادي عشر من تشرين الاول عاش الرسام بأحسن حال في فيينا ، حيث أقام لدى اخت متزوجة ، ولكن منذئذ عاودته ثانية حالات مرضية جديدة ، واكتبها رؤى وتشنجات وإغماءات واحساسات مؤلمة ، مما أوجب عودته الى ماريابل في ايار ١٦٧٨ .

ينقسم هذا السرد الجديد لآلامه الى ثلاث مراحل . فقد نجلت له التجربة اولاً في شكل فارس حسن اللبس حاول اقناعه بأن يرمي الصك الذي يشهد على قبوله في رهبانية اخوة سان روزير . وازاء المقاومة التي ابداها عاود الشبح نفسه ظهوره في اليوم التالي ، لكن هذه المرة في قاعة رائعة الزخرفة تفضى بالراقصين من النبلاء وجميلات النساء . وعرض عليه نفس الفارس الذي كان قد حاول تجربته مقترحات ذات صلة بالرسم (٤٤) ووعدته بالمقابل بمبلغ كبير من المال . وبعد ان أفلح ، بتلاوته الصلوات ، في تبديد هذه الرؤيا ، تجددت بعد بضعة ايام في شكل أشد تأثيراً ايضاً . فقد بعث اليه الفارس هذه المرة بواحدة من أجمل النساء ممن كنّ جالسات الى مائدة الوليمة ، لكي تصطحبه معها الى معشر الطبقة الراقية ، وكان عليه ان يجاهد نفسه حتى يتقن شر اغرائها . لكن الرؤيا التالية كانت أشد وقعا

٤٤ - لم اتمكن من فهم هذا القطع .

في النفس ايضا ؛ وكان الشهيد في قاعة اعظم فخامة «ينتصب فيها عرش من الذهب» . وكان يصطف حول العرش فرسان ينتظرون قدوم ملكهم . واقترب الشخص عينه الذي كان اولاه عنايته في اكثر المرات السابقة ودعاه الى ارتقاء العرش لانهم «يريدون ان يتخذوه ملكا عليهم وان يجلووا قدره الى ابد الابد» . وبهذا التوسيع للاستيهام ينتهي هذا الطور الاول والعظيم الشفافية من قصة التجربة .

وكان لا بد ان يعقب ذلك رد فعل . فاذا بكفة الزهد والورع ترجع . ففي العشرين من تشرين الاول ظهرت للرسم حالة عظيمة ، وخرج منها صوت زعم انه صوت المسيح ، وحته على العزوف عن العالم وعلى نذر نفسه لخدمة الرب في الصحراء لست سنوات . وقد عانى على ما هو باد للعيان من هذه الرؤى القدسية اكثر بكثير مما عانى من الرؤى الشيطانية التي سبقتها . ولم يبق من هذه النوبة الا بعد مرور ساعتين ونصف ساعة . وفي الرؤيا التالية ابدى الشخص القدسي ، المحاط بهالة ، قدرا اقل من الرفق والحسنى . وتوعد ارسام وهدده لانه لم يقبل العرض الالهي ، واقتاده الى الجحيم ليبت الخوف في قلبه بمرأى مال الملعونين . والظاهر ان التهديد لم يجد قبولا ، لان ظهورات الشخص المشع ، والمفروض فيه انه هو المسيح ، تكررت وتسببت له في غيبوبات وانخفاطات تدوم واحدها عدة ساعات . وفسي اعظم هذه الانخفاطات اقتاد الشخص البهي الطلعة الرسام فسي باذى الامر الى مدينة يتعاطى الناس في شوارعها جميع افعال الجهالة والضلالة ، ثم اقتاده بعد ذلك ، وعلى سبيل التضاد ، الى مرج جميل يحيا فيه النساك حياة ورة ويتلقون شهادات ملموسة على نعمة الله وعنايته الربانية . وتظهر بعد ذلك ، وبدلا من المسيح ، الام القدسية بنفسها لتحت الميض ، باسم العون الذي بذلته له اتقا ، على الانصياع لطلب ابنها الحبيب . و«لما لم

يبرم امره كما ينبغي» عاود المسيح ظهوره في اليوم التالي والحف عليه الحافا شديدا ، قارنا الوعد بالوعيد . وفي النهاية رضى ، وعزم على هجران العالم ، وعلى فعل ما هو منتظر منه . ووضع هذا القرار حدا للطور الثاني . ولاحظ الرسام ابتداء من تلك اللحظة انه لم يعد عرضة للرؤى والتجارب .

غير ان هذا القرار لم يكن حازما جدا على ما يظهر ، او انه أرجا تنفيذه اكثر مما ينبغي ، اذ فيما كان الرسام يصلي ويتجهد في كنيسة سان اتيين ، في السادس والعشرين من كانون الاول ، وقع نظره على امرأة صبية مشيقة القد تسير برققة نبيل جميل اللبس ، فما استطاع ان يرد عنه فكرة انه كان يوسعه ان يكون محل هذا النبيل . وكان هذا الخاطر يستوجب العقاب ، فاذا به ، في مساء اليوم نفسه ، وكان صاعقة قد صعقته : فرأى نفسه محاصرا بالسنة النار وغاب عن الوجود . وبذلت جهود مضنية لارجاعه الى الوعي ، لكنه ظل يتدحرج فوق ارض الغرفة الى ان تدفق الدم من انفه وفمه ، وأحس بأنه يسبح في العرق والاقذار ، وسمع صوتا ينبئه بان هذه الحالة قد حلت به عقابا له على افكاره الباطلة والعاينة . وفي وقت لاحق ساطت ارواح الشريعة بالحيال ، واندرته بأنه سيلقى يوميا نظير هذا العذاب ، الى ان يقر قراره على الانتساب الى رهبانية نسيكية . وقد دامت هذه الاحداث الى يوم ١٣ كانون الثاني ، وهو التاريخ الذي تقف عنده البوميات .

واضح للعيان اذن كيف ان الاستيهامات الاغرائية لسدى رسامنا اليائس تتحول اولا الى استيهامات زهدية ، ثم الى استيهامات عقابية . ونحن نعرف مقدما نهاية قصة عذابه . فقد قصد في شهر ايار ماريبال حيث اعترف بأنه عقد عهدا سابقا ، محررا بالخير الاسود ، وأعرب عن اعتقاده بأن هذا العهد هو مصدر العذابات الجديدة التي ينزلها به ابليس . وكان له ما اراد : فقد أعيد اليه العهد وكتب له الشفاء .

وفي اثناء اقامته الثانية هذه في ماريبال رسم الصور  
النسوخة في **التذكار** ، وفعل في الوقت نفسه شيئا يتمشى  
ومتطلبات الطور الزهدي من يومياته . فبدلا من ان يقصد  
الصحراء ليتنسك ، انتسب الى رهبانية اخوة الرافعة :  
Religiosus Factus Est (٤٥) .

نتيج لنا مطالعة اليوميات ان نفهم جانبا جديدا في كل هذه  
القصة . فنحن نذكر ولا ريب ان الرسام نذر نفسه للشيطان لانه  
شق عليه غداة وفاة والده - وقد اخذ منه التبرم كل ماخذ وبات  
عاجزا عن العمل - ان يتدبر امر معاشه . والحال ان هذه العوامل،  
من هبوط وكف عن العمل وحداد على الاب ، مترابطة بعضها  
ببعض بكيفية ما ، بسيطة او معقدة . ولعل الشيطان ما ظهر له  
تكرارا وهو محبو بالانداء الكبيرة الا لانه كان يفترض بإبليس ان  
يفدو اياه المريض . بيد ان هذا الامل لم يتحقق ، وظل الفشل في  
كل شيء حليفه ، وما امكنه ان يعمل كما ينبغي او لعل الحظ لم  
يحالفه ولم يلق عملا بكفيه اوده . ورسالة التوصية الصادرة عن  
الخوري تقول عنه : «رجل بائس ليس له من معين» . وعليه ، لم  
يكن الرسام في حال من العوز المعنوي فحسب ، بل كان يعاني  
ايضا العوز المادي . وتلقى في ثنايا قصة رؤاه الاخيرة ملاحظات  
تدل ، مثلها مثل مضمون المشاهد التي يشاهدها ، على انه لم  
يتغير شيء رغم نجاح التعزيم الاول . نحن اذن امام رجل لا يفلح  
في شيء ، ولهذا السبب لا يحضه احد ثقته . ففي الرؤية الاولى  
يساله الفارس عما سيفعله ، ما دام احد لا يهتم به : «ما دام  
الجميع قد تخلوا عني ، فما بوسعي ان افعله ؟» . والمجموعة  
الاولى من الرؤى في فيينا تتفق تماما مع الاستيهامات الرغبة

لإنسان فقير ، جائع الى اللذات والمباهج ، بائس : قاعات عظيمة ،  
اطياب من الطعام ، آتية من فضة ، نساء جميلات ، وهنا تحديدا  
تلتقي ما كنا افتقدناه حتى الان في العلاقات مع الشيطان .  
فقبلئذ كانت تسيطر على المريض سويداء تحول بينه وبين أية  
متعة وتقره على رفض اشد العروض اغراء . ويبدو ان هذه  
السويداء قد امكن التغلب عليها بعد التعزيم ، فدبت الحباة من  
جديد في جميع المطامع والشهوات الدنيوية .

في واحدة من الرؤى الزهدية يتشكى الشخص الذي يأخذ  
بيده (المسيح) من ان احدا لا يريد ان يصدقه ، مما يمنعه من  
تنفيذ ما يؤمر به . ولسوء الحظ ان الجواب الذي يتلقاه يبقى  
مستغلقا ففهم علينا . «لا احد يريد تصديقي ، لكن ما حدث أعلمه  
حق النلم . غير انه يعذر علي انا نفسي الافصاح عنه» . وتضيء  
القصة بعد ذلك بضوء باهر حينما يقفاده دليله الالهي الى مقام  
النسك : اذ يصل الى مغارة يقيم فيها شيخ طاعن في السن منذ  
ستين سنة ، ويعلم من الاجوبة التي يلقاها عن اسئلته ان هذا  
الشيخ تطعمه يوميا ملائكة الرب . ثم يرى بام عينه ملاكا يحمل  
الثوب للشيخ : «ثلاث قصعات من الطعام وخبز وقطعة لحم  
وشراب» . وبعد ان يأكل الناسك حتى الشبع ، يجمع الملاك بقايا  
الطعام ويذهب بها . وسهل علينا ان نذكر ما الاغراءات التي يمكن  
ان تقدمها هذه الرؤى التقوية : ففاعبتها المحتملة ان تحمّل  
المريض على اختيار طراز في العيش لا يعاني فيه هموم المأكّل  
وجديرة بالملاحظة ايضا كلمات المسيح في آخر الرؤى . فبعد  
تهديده اياه بأنه اذا لم يمثل فسيفع شيء برغمه . هو وسائر  
الناس ، على الايمان ، ينقل الرسام كلمات المسيح : «ليس لي ان  
اهتم الناس ، فحتى لو اضطهدوني او لم أثق منهم أي عون :  
فإن تخلي الله عني» .

انفذ كل كـ حارس فلان . احبنا الله بـ كفل سـ  
له سهلا العزوف عن عالم الجحالة هذا . غير انه فعل ذلك

٤٥ - باللاتينية في النص : «صار واهبا» .



خاتمة المطاف بسبب ما كان فيه من إملاق . انتسب الى رهبانية، فانتهى بذلك صراعه الداخلي وبؤسه المادي على حد سواء . وتنعكس هذه النهاية في عصابه من حيث أن استعادته الصلح الاول المزعوم تحرره من نوباته ورؤاه . وفي الواقع ، كان لكسلا طوري مرضه الإبليسي معنى واحد . اذ لم يكن له من طلب الا تأمين معاشه ، المرة الاولى بمساعدة ابليس ، وعلى حساب خلاص نفسه . وفي المرة الثانية ، لما تخلى عنه ابليس ولم يكن امامه مناص من التعزوف عنه ، بمساعدة الكنيبة وبتفجيتيه بحريره وبمعظم امكانيات المتعة التي تقدمها الحياة . ولعل كل كره . هائزمن كان ببساطة رجلا مسكينا سيء الطالع ، ولعله كان اخرق أو غير كفؤ لتدبر امر نفسه ، ينتمي الى ذلك النمط من الناس المعروفين باسم «الرضعاء الدائمين» الذين لا يسعهم ان يخرجوا بأنفسهم من الوضع السعيد الذي كانوا يرتعون به في حضن الأم ، والذين يقضون حياتهم بكاملها وهم يبحثون عمن يطعمهم ويقيتهم . وهكذا نلناه في قصة مرضه هذه ينطلق من الاب ليعود ادراجه ، مروراً بالشيطان ، بدليل الاب : الى الآباء المقدسين .

قد يبدو هذا العصاب . عند الملاحظة السطحية . وكأنه حيولة من احابيل الشبعة التي يحفل بها جانب بكامله مسن لتسراع الخطير . لكن العادي . في سبيل الحياة . وقد لا يكون كذلك هو واقع الحال على الدوام . ولكنه كثير التواتر على كل حال . وكثيراً ما يختبر المحللون بالتجربة كم يشق عليهم ان يعالجوا تاجر «بدأت تظهر عليه منذ بعض الوقت ، بأثر مما هو عليه من صحة جيدة ، أعراض عصاب ما» . فالكارثة التي يرهص التاجر بأنها تتمده في تجارته يكون من نتائجها الثانوية بناء ذلك العصاب ، مما يتيح للمريض الامكانية لإخفاء همومه المعاشية الفعلية خلف ستار أعراضه المرضية . وهذا على كل حال حل غير مناسب بالمرّة ، لان العصاب يمتص قوى كان يمكن

استخدامها على نحو انفع واجدى في مواجهة الوضع المحفوف بالمخاطر مواجهة متبصرة .

وفي احوال اخرى اكثر تواتراً بما لا يقاس يكون العصاب اكثر انزلالاً واستقلالاً عن هموم الحياة والبقاء . فالنزاع . الذي عنه ينشأ العصاب . يكون موضوعه إما اهتمامات ليبيدوية خالصة . وأما اهتمامات ليبيدوية مقرونة على نحو وثيق للغاية بهموم الحياة والبقاء . لكن ديناميكية العصاب في الحالات الثلاث واحدة . فالليبيدو المتراكم ، الذي لا يسهل ان يجد سبيله الى الاشباع في الواقع . يشق لنفسه . بواسطة الكفوس ، طريقاً نحو تشيئات قديمة عبر الاشعور المكبوت . وما دام الانا يجني فائدة ما من المرض . فانه يسمح للعصاب بالوجود . وان يكن الضرر الاقتصادي الذي يلحق بهذا الانا اكيدا لا ريب فيه .

كذلك . ما كان للوضع المادي الحزن لرسامنا ان يستثير لديه عصاباً شيطانياً لو لم يولد لديه بؤسه حيناً معزراً الى ابيه . ولما قبض له ان يتحرر من سويدانه ومن ابليس ، نشب فيه صراع جديد بين الرغبة الليبيدوية في التمتع بالحياة وبين احساسه بأن تدبر امر معاشه يقتضي منه بنسب الإلحاح التعزوف والزهد . وقد شعر الرسام - ومن المفيد ان نلاحظ ذلك - شعوراً عميقاً بالروابط التي تربط بين كلا ثوري تاريخ آلامه . لانه يعزو كلا منهما الى حلف عقده مع الشيطان . وهو لا يميز على كل حال تمييزاً فاصلاً بين تأثير الروح الشريرة وتأثير القوى الالهية ؛ وليس لديه كليهما سوى اسم واحد : «تهورات شيطانية» .

«العصاب الوسواسي» على الداء الذي تشكو منه (٢) . لكن لا يجوز لنا ان نحاول ان نستق الطابع الاساسي لهذا الداء من اسمه ، لانه توجد . حصر المعنى . ظاهرات نفسية مرضية اخرى قابلة لان تنلبس ما نسميه بـ «الطابع التسلطي» . ولا يزال من الضروري في الوقت اراهن ان تقوم معرفة مفصلة بهذه الاحالات محض التعريف . على اعتبار اننا لم نفلح حتى الان في استخلاص معيار العصاب الوسواسي . وهو معيار كامن فسي ارجح الفن تحت طبقات بعيدة الغور وان يكن بالامكان استشفاف وجوده في جميع تظاهرات ذلك الداء .

ان قوام الطقس العصابي افعال صغيرة : افعال مضافة او معاقبة او ترتيبات تؤدي . على صعيد افعال الحياة اليومية . بطريقة واحدة على الدوام او بكيمة تتنوع طبقا لقواعد محددة . وتترك هذه النشاطات فينا انطبعا بانها محض «شكليات» ؛ وتبدو لنا غريبة من المعنى تماما . وهي لا تظهر بظهور آخر للمريض ، ومع ذلك يعجز عن عدم القيام بها . لان كل حيدان عن الطقس يعاقب بخصر Angoisse لا يطاق . ورغم المهمل على ان يفعل من جديد وبعد فوات الاوان ما كان اغفل فعله . ولا تقبل تفاهة عن الافعال الطقسية المناسبات وضروب النشاطات التي تكتنفها الطقوسية فتؤخر تنفيذها ، علاوة على انها تجعله اكثر صعوبة : وعلى سبيل المثال فعل ارتداء الثياب وخلعها ، فعل الرقود . فعل اشباع الحاجات الجسمية ، الخ . ولعله يسمنا ان نصف الكيفية التي يمارس بها الطقس فيما لو استبدلناه ، نوعا ما - بمجموعة من قوانين غير مكتوبة . فمثلا ، وفيما يخص طقس السرير : ينبغي ان يكون الكرسي في وضع معين امام

## الإفعال التسلطية والشعائر الدينية (١)

لست بالتأكيد اول من استمرى انتباهه التشابه القائم بين افعال العصبيين التسلطية وبين الشعائر التي يدال بها المؤمن على وعيه وتقواه . وصفة «الطقسي» التي تطلق على بعض هذه الافعال التسلطية هي خير شاهد على ما اقول . بيد ان هذا التشابه يبدو لي اكثر من محض تشابه سطحي حتى ليجوز للمرء ان يستخلص ، بطريق المفايسة ، من فهم معين لنشأ الطقس العصابي استنتاجات تتعلق بالسيرورات النفسية للحياة الدينية . ينتمي الناس الذين يؤدون افعالا تسلطية او طقسية ، ومنهم من يعاني افكارا تسلطية وتمثلات تسلطية ونوازع تسلطية ، الخ ، الى فئة سريرية خاصة جرت العادة على اطلاق اسمهم

١ - انظر لوبنفلد : الظاهرات النفسية الوسواسية ، ص ١٩٤ .  
٢ - انظر لوبنفلد : الظاهرات النفسية الوسواسية ، ص ١٩٤ .

السري . ويتجلى لدى الالبسة فوقه بطريقة معينة . كما ينبغي ان يكون غطاء السري مطرزا في اطرافه ؛ ولا بد ان يكون اسرعف مشدودا وبلا ثنيا . ومن الواجب صف المحدثات بطريقة او بخرى . بل لا بد ان يكون الجسم نفسه في وضعيه محددة بدقة ؛ فعند «مط» يكون من حق المرأة ان يخلد الى النوم . وفي الحالات الخفيفة يبدو الطقس وكأنه مغالاة بنظام معاد ومبرر . غير ان الوسوسة الضميرية التي تؤدي به . وانحصر الذي يشع عن الاخلال به . يضفيان على الطقس طابع «فعل مقدس» . فكن ما يحكره وبشموشه لا يتقبل بنسجام ؛ ومن الواجب ادائه بعزل عن الجمهور . وفي غيبة الاشخاص الآخرين .

ان جميع اشكال النشاط يمكن ان تغدو افعالا تسطيع باوسع معاني الكلمة . اذا ما ارفقت بفعال صغيرة مضافة وجعل لها ايقاع معين من الوقف والتكرار . وليس لنا ان نتوقع الشعور على حد فاصل واضح بين «الطقس» و«الافعال التسلطية» . فالافعال التسلطية تدنى في اغلب الاحيان عن طقس ما . ويتألف المرض . علاوة على هاتين الظاهرتين . من موانع ونواه (خمسول الإرادة) ليس لها من دور في الواقع الا ان تنابع وظيفة الافعال التسلطية ؛ وذلك من حيث ان بعض الاشياء تحظر على المريض . بينما لا يسمح له ببعضها الا بشرط مراعاة طقس مقرر مسبقا . ومن المثير للفضول ان نرى الاجبار Compulsion والحظر (وجوب فعل شيء من الاشياء وانعدام الحق في فعل شيء آخر) على حد سواء لا يطلان في البداية سوى نشاطات الناس الانفرادية ؛ ولا يتطرقان لاجل طويل من الزمن الى سلوكهم الاجتماعي ؛ ولهذا يمكن لأشياء هؤلاء المرضى ان يعالجوا مرضهم على انه مسألة خاصة وان يخفوه ويكتموه لسنين عديدة . وعلى كل ؛ فان عدد الأشخاص الذين يعانون اشباه هذه الاشكال من العصاب الوسواسي اكبر بكثير مما يصل الى علم الاطباء . زد على ذلك ان الكثيرين من هؤلاء المرضى يجدون لهذا الكتمان طرفا

مساعد في كونهم يفلحون في اداء واجباتهم على خير وجه في شطر من النهار بعد ان يكونوا قد كرسوا عددا معلوما من الساعات لفعالهم السرية في خلوة عن سائر الناس .

ويسر علينا ان ندرك ان يمكن وجه التشبيه بين الطقس العصبي وبين اشعائر الدينية ذات الصفة المقدسة ؛ في الخوف المبني عن الضمير في حال الاهمال . وفي الاجتناب التام لسائر النشاطات (الازعاج ممنوع) ؛ وفي الطابع المقدس والموسوس للتنفيذ . لكن الفروق ايضا بيّنة . وبعضها صارخ الى حد تبدو معه هذه المشابهة ضربا من انتهاك القدسات ؛ التنوع العفليم للافعال التسلطية بالتعارض مع نمطية الطقس الديني (الصلاة ؛ السجود . الخ) ؛ والطابع الخاص للدولي بالتعارض مع الطابع العام والجماعي للشعائر الدينية ؛ وعلى الاخص الفارق المتمثل في ان افعال الطقس الديني الصغرى تكون ذات مغزى وقصد رمزي . بينما تبدو افعال الطقس العصبي ساذجة وعارضة من المعنى . ويظهر العصاب الوسواسي هنا وكأنه صود كاركاتوريه شبيهة هازلة وشبه مؤسية لدبابة فردية خاصة . بيد ان هذا الفارق الحاد بين الطقس العصبي والطقس الديني هو بالتحديد الذي يتلاشى حينما نمضي قدما الى الامام في فهم الافعال التسلطية بالاعتماد على تقنية التنقيب التحليلي النفسي (٢) . فهذا التنقيب يتيح لنا ان نضع حدا نهائيا للظاهر الذي يجعلنا نتصور ان الافعال التسلطية بريئة وعاربة من المعنى . كما انه يبعث اللام عس من المصدر الذي يأتي منه هذا الظاهر . وهكذا نتمرس على ان ندرك ان الافعال التسلطية ؛ جميعها بلا استثناء وبجميع تفاصيلها ؛

٢ - انظر س. فرويد : مجموعة دراسات مقبضية حول نظرية الاعصاب ؛

فيينا ١٩٠٦ ، الطمة الثالثة ١٩٢٠ .

مترعة بالمعنى ، وأنها تخدم اهتمامات ائمة لدى الشخص المعنى .  
وأنها تعبر عن أحداث ذات تأثير دائم وعن أفكار مشحونة بوجدانية  
الفرد . وهي تحقق ذلك بطريقتين : بوصفها تمثيلا مباشرا أو  
بوصفها تمثيلا رمزيا ؛ فمن المناسب بالنالي تأويلها سرياً (٤)  
أو رمزياً .

لزام عليّ هنا أن أسوق بعض الأمثلة في تأييد هذه  
الاطروحة . ومن ألف النتائج التي يتمخض عنها التحليل  
النفسى في الأعصبة النفسية . فلن يدهشه أن يعلم أن ما تمثله  
الأفعال التسلطية أو الطقسية ينبع من حياة المريض الحميمية ،  
بله الجنسية .

أ - درست مرة حالة فتاة كانت تجد نفسها مدفوعة ، بعد  
كل اغتسال ، الى تدوير الطشت في مكانه . وكان مدلول هذا  
الفعل الطقسي يكمن في القول المأثور : « لا ترم الماء الوسخ قبل  
تأمين ماء نظيف عوضاً عنه » .

وكان الهدف من هذا العمل تحذير اختها ، التي كانت تحبها  
حبا جما ، ومنعها من تطبيق زوجها الذي لم يكن مناسباً لها كثيراً  
قبل أن تتعرف الى آخر يفضلها .

ب - كانت امرأة تعيش منفصلة عن زوجها ، وكانت تجد  
نفسها مدفوعة ، أثناء تناول وجبات الطعام ، الى أن تدع جانباً  
خير القطع ، فلا تأكل على سبيل المثال سوى حوافي شريحة اللحم  
المشوي . وتفسر هذا الاستكاف يرتبط باليوم الذي رأى فيه  
النور . فقد تظاهر لأول مرة يوم صارت زوجها بأنها ستمتنع  
مذاك فصاعداً عن العلاقات الزوجية . أي يوم استنكتت عن  
خير ما في الزواج .

ج - كانت المريضة نفسها لا تستطيع في الواقع أن تجلس الا

على كرسي واحد ، وما كانت تقوم عنه الا بعسر ومشقة . وكان  
الكرسي ، بحسب بعض تفاصيل حياتها الزوجية ، يرمز فسي  
نظرها الى زوجها الذي بقيت مقيمة على وفائها له . وكانت تفسر  
بالعبارة التالية إجبارها هذا : « من الصعوبة بمكان الانفصال (عن  
رجل ، عن كرسي) بعد جلوسي عليه لأول مرة » .

د - اعتادت لحن من الزمن لحن تكرر فعلاً تسلطياً غريباً  
ولامعقولا في الظاهر . فقد كانت تجري من غرفتها الى غرفة أخرى  
كان في وسطها طاولة ، وكانت ترتب على نحو معين البساط  
المفروش فوق الطاولة ، وتقرع الجرس للخادمة وتأمرها بالاقتراب  
من الطاولة ، ثم تصرفها بأمر مغاير . وفي أثناء الجهود التي  
بذلناها لتفسير إجبارها هذا ، استذكرت أن بساط الطاولة  
المذكورة ملطخ ببقعة كريهة اللون ، وأنها لا ترتب البساط على  
النحو الذي ترتبه به الا ليقع نظر الخادمة على البقعة . وكان  
المشهد كله في الحقيقة تكررأ لحدث يتعلق بزواجها ، حدث طرح  
فيما بعد على عقلها معضلة تستوجب حلاً . ففي ليلة عرسهما  
وقع زوجها ضحية حظ عاثر ليس بنادر حدوثه . فقد وجد  
نفسه مضايماً ببنة «ركض عدة مرات في تلك الليلة من غرفته الى  
غرفتها» ليكرر المحاولة . وفي صبيحة اليوم التالي قال انه  
سيشعر بالخجل ، ولا بد ، أمام خادمة الفندق التي ستقوم  
بترتيب الأسرة ؛ وعلى الأثر تناول قارورة من الحبر الاحمر وصب  
محتواها فوق الشرفف ، ولكنه فعل ذلك بخرق جعل البقعة  
الحمراء تنتشر في مكان ليس وثيق الصلة بما رمى اليه . وهكذا  
صارت تعيد ، بذلك الفعل التسلطى ، تمثيل مشهد ليلة عرسها .  
وبالفعل ، ان « الطاولة والفرش » هما الشيطان اللذان عليهما  
يعقد الزواج .

هـ - هذه المريضة عينها كانت تبدي ميلاً لا يقاوم الى تسجيل  
رقم كل ورقة نقدية قبل أن تخرج من بين يديها : والحال أن

٤ - نسبة الى السيرة او ترجمة الحياة . - م -

ويبدو انه يقوم هنا فارق جديد عن الشعارات الدينية : لكن لا بد لنا ان نتذكر ان الشخص الورع المفرد يمارس بوجه المصنوع الفطس الديني من دون ان يتساءل عن معناه . بينما يسع الكاهن والمحلل ان يعرفا معنى الطقس هذا - الذي غالبا ما يكون رمزيا . والدوافع التي تحض المؤمنين بالحاج على ممارسة الشعارات الدينية تبقى مجهولة مع ذلك من قبلهم جميعا ، او انهم يمثلونها فسي وعيهم في صورة دوافع اخرى تتقدم عليها وتحتل مكانها .

كان تحليل الافعال التسلطية قد اتاح لنا ان نلقي نظرة على انبولوجيا (هـ) هذه الافعال وعلى تسلسل الدوافع التي تحضف عليها بصورة لا تقاوم . وبوسعنا ان نقول ان من يعاني ضروب الإجبار والنهي يتصرف وكأنه واقع تحت سلطان **احساس بالذنب** . لا يعرف عنه شيئا بالاصل ؛ احساس لاشعوري بالذنب ، كما يخلق بنا ان نقول من دون ان نأبه لما بين الالفاظ المقرون بينها على هذا النحو من تصادم . هذا الاحساس بالذنب يكمن مصدره في بعض السيورات النفسية المبكرة ، لكنه يجد عنصر إحياء دائم له في **الإغواء** الذي تجده كل مناسبة راهنة . وهو يولد ، من جهة اخرى ، **حصرا مترقبا** ، انتظارا لمصيبة هي دوما بالمرصاد ، حصرا يربطه مفهوم **التقصا** بالادراك الباطني للاغواء . وحين ينزع طقس من الطقوس الى التأسس والتكون ، يكون المريض لا يزال يدرك بوعيه ان عليه ان يفعل هذا الشيء او ذلك ، وإلا فسيان مصيبة ما ستقع ، وبوجه عام فان نوع المصيبة المتوقعة لا يكون غالبا بعد عن وعيه . لكن العلاقة ، الممكن البرهان عليها في كل حالة ، بين المناسبة التي يبرز فيها الحصر المترقب وبين العنصر الوعيدي الذي تنطوي عليه تكون من البداية محجوبة عن ادراك

هذا الإجبار كان بدوره قابلا للتفسير بسيرة حياتها . فيوم كانت لا تزال تداعب فكرة هجر زوجها في حال عثورها على رجل أجدر منه بثقتها ، سمحت لرجل في احد منتهجات المياه المعدنية بأن يغازلها رغم انها كانت تشك في جد نيته . وذات مرة احتاجت الى قطع نقابة صغيرة ، فرجته ان يصرف لها قطعة نقدية من ذوات الخمسة الكورونات . ففعل ذلك ، ووضع القطعة النقدية الكبيرة في جيبه . وقال برقة حامية انها لن تفارقه بعد اليوم لانها مرت بين يديها . وفي لقاءات تالية عن لها غير مرة ان تسأله ان يريها قطعة الخمسة الكورونات ، لتتأكد بنوع ما من مدى صداقية غزله . لكنها امسكت عن ذلك لسبب بسيط ، وهو انه كسان سيستحيل عليها ان تميز قطعة نقدية من اخرى متساويتين في القيمة . وعلى هذا فان الشك لم يتبدد قط ، بل خلف وراءه ميلا اجباريا الى تسجيل ارقام الاوراق النقدية ، هذه الارقام التي بفضلها تتميز كل ورقة فرديا عن سائر الاوراق المعادلة لها في القيمة .

هذه الامثلة القليلة . المتنبسة من معين معاباتي الواسع ، لم اسبقها الا تمثيلا على الاطروحة القائلة ان كل شيء في الافعال التسلطية ثر بالمعنى وصالح للتاويل . وكذلك الحال فيما يتعلق بالطقس بحصر المعنى ؛ غير ان البرهان على ذلك سيتطلب عرضا اكثر تفصيلا . ثم انني لا اجهل اننا قد ابتعدنا في ظاهر الامر ، بانشغالنا بتوضيح فحوى الافعال التسلطية ، عن دائرة الافكار الدينية .

ان من شروط الحالة المرضية ان يفعل الشخص الخاضع للإجبار ما يفعله من دون ان يعرف مدلوله ، وعلى الاقل مدلوله الرئيسي . وجهود المعالجة التحليلية النفسية هي وحدها التي يمكن ان تجعله عي معنى الفعل التسلطى ، وبالتالي الدوافع التي تحضه عليه . ونحن نعرف هذا الوضع الذي له خطورته بنوعنا ان الفعل التسلطى يفيد في الإبانة عن دوافع وتمثلات **لاواعية** .

المرض . وهكذا يكون الطقس في بادئ الامر **فعلا دفاعيا** ، او **تأمينا** ضد شيء ما ، او **تديرا وقائيا** .

وتناظر احساس العصابي الوسواسي بالذنب تصريحات ووعاء الناس حين يؤكدون انهم يعرفون انهم في سريرتهم خطاة كبار ؛ ويبدو ان الممارسات التقوية (الصلوات ، الابتهاالات ، الخ) لها قيمة تدابير دفاعية ووقائية ، وهي تدابير يستبق بها الودعاء كل نشاط من نشاطات النهار ، وعلى الاخص كل مشروع يخرج عن نطاق المألوف .

ومن الممكن ان نصل الى فهم اعمق لاولية العصاب الوسواسي فيما لو قدرنا بحق قدرها الواقعة الاولى الكامنة في اساسه والمتثلة دوما في **كبت دافع غريزي** (مركب من مركبات الغريزة الجنسية) ؛ دافع غريزي متواجد من الاساس في جيلّة الشخص المعني ، وقد امكن له ان يتظاهر لبرهة من الزمن في حياته الطفلية ، ثم وقع بعد ذلك فريسة للكبت . ومع كبت هذه الغريزة تتولد في الوقت نفسه وسوسة ضمنية مفرطة موجهة ضد اهداف هذه الغريزة . بيد ان هذا التشكيل الارتجاعى النفسي لا تساوره الثقة بنفسه ، بل يحس بأنه مهدد باستمرار من قبل الغريزة الواقة له بالرصاد في اللاشعور . ويكفون الاحساس بتأثير الغريزة المكبوتة في شكل تجربة وإغواء ، وفي اثناء سيرورة الكبت بالذات يولد الحصر الذي يستحوذ ، بصفته حصرا مترقبا ، على مضمار المستقبل . وسيرورة الكبت التي تقضى الى العصاب الوسواسي ينبغي ان تنعت بأنها كبت غير مكتمل النجاح ، كبت يندر بان يضعف اكثر فاكثر . ومن هنا يجوز تشبيهه بنزاع لا نهاية له ؛ فالجهود النفسية المتجددة باستمرار ضرورة كما يقوم التوازن في مواجهة ضغوط الغريزة الدائمة . هكذا تولد الافعال الطقسية والتسلطية ، من جهة الاولى ، كمقاومة للتجربة والاغواء ، ومن الجهة الثانية كحماية من مصيبة منظرية . لكن سرعان ما يتضح ان افعال الحماية ضد

التجربة والإغواء ليست كافية ، فتظهر عندئذ الى حيز الوجود التواهي التي يفترض فيها ان تبعدنا عن الموقف الذي قد نتعرض فيه للتجربة . وكما نرى ، فان التواهي تحل محل الافعال التسلطية ، مثلما ان هدف الرهاب Phobie تلافي حتمية نوبة هستيرية . ومن جهة اخرى ، يمثل الطقس جملة الشروط التي تبقى فيها اشياء اخرى - غير محرمة بعهد تحريما باتا - مسموحا بها ؛ تماما كما ان معنى طقس الزواج الديني السماح للشخص الورع بالتمتع الجنسية ، الملتطخة في غير هذه الحال بالخطيئة . ومن الصفات الاخرى للعصاب الوسواسي ، مثله مثل سائر الاصابات المائلة ، ان تظاهراته (اعراضه التي منها الافعال التسلطية) ، تمثل تسوية بين القوى النفسية المتصارعة . وهكذا تميط الاعراض اللثام من جديد عن قدر من اللذة التي يفترض فيها ان تحول دونها ، وتضع نفسها في خدمة الغريزة المكبوتة كما في خدمة السلطة الكابتة . بل ان الافعال التسلطية ، التي كانت تفيد في الاصل في الدفاع بالاحرى ، تفقد مشابهة اكثر فاكثر ، مع تقدم المرض ، للاعمال المدانة التي بها كانت تتظاهر الغريزة في الطفولة .

وبوسعنا ان نهتدي الى بعض اثر هذه العلاقات في مضمار الحياة الدينية : فقمع بعض الدوافع الغريزية وتكرانها يبدو انه الاساس الذي قام عليه الدين ايضا ؛ غير ان القومات هنا ليست جنسية خالصة كما في العصاب ، وانما هي غرائز انانية ، ضارة بالجمع ؛ علما بان المساهمة الجنسية فيها ليست في اغلب الاحيان مستبعدة . ولقد اعتدنا ان نعزو الشعور بالذنب المتبقي عن إغواء لا تنطفئ جذوته ابدا ، والحصر المترقب في شكل خوف من القصاص الالهي ، اعتدنا ان نعزوهما الى مضمار الدين قبل ان نعزوهما الى مضمار العصاب . ويبقى قمع الغرائز في مضمار الحياة الدينية ناقصا وغير مكتمل ابدا ، ربما بسبب

المفومات الجنسية المختلطة بها ، وربما بحكم الصفات العامة للفريزة . بل ان الانتكاسات الشاملة والعودة الى ارتكاب الخطيئة اكثر تواترا لدى الشخص الورع مما لدى الشخص المعصوب ؛ وهي تشترط نوعا جديدا من النشاطات الدينية : افعال الندامة والتوبة التي لا يمصر علينا ان نجد نظائر لها في العصاب الوسواسي .

لقد راينا ان للعصاب الوسواسي سمة خاصة ومنحطة تتمثل في ارتباط الطقس بالافعال الصغيرة للحياة اليومية وتظاهره في شكل تعليمات وتقييدات صيبانية . وليس لنا ان نفهم هذه الخاصية اللافتة للنظر من خواص بنية اللوحة السريرية ما لم ندرك ان اوالية **النقل** النفسي ، التي اكتشفها اول الامر فسي تكوين الحلم ، تسيطر على المسؤوليات النفسية للعصاب الوسواسي . ولا يمصر علينا ان نرى ، من خلال الامثلة القليلة التي ضربتها على الافعال التسلطية : كيف ان رمزية تنفيذ الفعل وتفاصيل هذا التنفيذ تبني وفق اوالية نقل مما هو اصيل وهام الى شيء حقير واستبدالي ، كالنقل على سبيل المثال من رجل الى كرسي . وهذا الميل الى النقل هو الذي يدخل المزيد من التعديل على الدوام على لوحة المظاهر المرضية ، فيجعل من افنه الاشياء اهمها واكثرها إلحاحا اختلافا . وليس يسعنا ان نتجاهل وجود ميل مشابه الى نقل القيمة النفسية في المضمار الديني ، وفي الحقيقة ضمن الاتجاه نفسه ، بحيث ان الممارسة الطقسية الثانوية الاهمية للشعائر الدينية تغدو شيئا فشيئا هي الاساسية بعد تنحية مضمونها التصوري جانباً . ولهذا تتعرض الاديان لهزات من الاصلاحات الرامية الى اعادة توطيد العلاقة الاصلية للقيم .

ان طابع النسوية الذي تتسم به الافعال التسلطية بصفتها اعراضا عصابية هو عينه الذي لا يميز الا باقل الوضوح فسي الافعال الدينية المناظرة لها . ومع ذلك فان ثمة شيئا ما يذكّرنا

بسمة العصاب هذه حينما نرى بام عيننا كيف ان جميع الافعال التي يشجبها الدين - تظاهرات الفرائز المكبوحه من قبل الدين - تفعل باسمه في كثير من الاحيان ولصالحه على ما يقال .

بحكم هذه التوافقات وهذه التشابهات ، قد يكون جائزا لنا ، على ما في ذلك من مجازفة ، ان تصور العصاب الوسواسي على انه نظير مرضي لتشكل الاديان ، وان نصف العصاب بأنه تدئين فردي ، والدين بأنه عصاب وسواسي عام . والتوافق الجوهري يكمن من هذا المنظور في الاستنكاف عن ممارسة الفرائز الداخلة في تكوين الانسان وجلبته ، كما يكمن الفارق الاساسي في طبيعة هذه الفرائز التي تكون في العصاب من اصل جنسي صرف ، وفي الدين من طبيعة انوية ايضا .

ان الاستنكاف التدرجي عن الفرائز المكونة لجلبته الانسان ، والتي قد توفر ممارستها لذة اولى للأن ، هو على ما يبدو واحد من اسس تطور البشر الحضاري . وتتولى الاديان انجاز شطر من هذا الكبت للفرائز ، اذ تحض الفرد على التضحية بملذاته الفريزية وتقديمها قربانا للاله . يقول الرب : «الي النعمة والجزاء» (١) . وبدلنا تطور الاديان القديمة ، بحسب ما يترأى لنا ، على ان الكثير من «الانام» التي عرفت عنها الانسان قسدا «حوّلت» الى الله ، وكانت لا تزال مباحة باسمه ، بحيث ان التنازل والتحويل للاله كان الوسيلة التي بها يتحرر الانسان من سلطان غرائزه الفريزية والفاضة بالجمبع . وعليه ، ليس من قبيل المصادفة ان تكون جميع الخصائص البشرية - مع ما يتفرع منها من اعمال شريرة - قد عزيت الى الالهة القديمة بغير ما حدود ، كما لم يكن ضربا من التناقض مع ذلك الا يؤذن للانسان بتبرير آثامه بالمثل الالهي .

٦ - سفر التثنية ، المصحاح ٣٢ ، الآية ٣٥ . -م-

فأما الكلمة فكانت **Vaterarsch** (٢) ؛ وأما الصورة التي كانت تصاحب هذه الكلمة فتمثل الأب في شكل القسم السفلي من جسم عابر ، محبو بذراعين وساقين ، وناقص منه الرأس والقسم العلوي من الجسم . وما كانت الاعضاء التناسلية بظاهرة ، بل كانت معالم الوجه مرسومة على البطن .

وإذا أردنا تفسير مثل هذا العرض النادر في لامقوليته وخلفه ، فلا بد أن نأخذ في اعتبارنا أن ذلك الفتى ، المكمّل أصلاً تطوره العقلي والمفعم أخلاقياً بصبوات سامية ، كان قد تماطى حتى السنة العاشرة من عمره ممارسات إيروسية شرجية نشطة ومتعددة الأشكال . وبعد أن تغلب على هذا الطور ، ارتدت حياته الجنسية إلى ذلك الطور الأول بفعل الصراع اللاحق الذي خاض غماره ضد الإيروسية التناسلية . وكان يحب أباه ويحبه كثيراً ، وكان يخشاه أيضاً إلى حد ما . لكن أباه كان يبدو في ناظره ، وبالقياص إلى المثل الأعلى الذي جعل نصب عينيه أن يدركه ؛ الزهد وقمع الفرائز ، ممثل الشطط والشبق والنهم إلى المتع المادية .

## موازيات ميتولوجية

### لتمثل دسواسمي تشكيلي (١)

وسرعان ما اتضح أن كلمة **Vaterarsch** هي ترجمة المانية مأكرة للقب «البطريق» (٣) النبيل ، وأن الصورة الوسواسية مستقاة من رسم كارليكاتوري مشهور . وهذه الصورة تستحضر إلى ذهننا للحال تمثيلات أخرى تستبدل ، بقصد الإذلال والمهانة ، تمام الشخص بعضو واحد من أعضائه ، وعلى سبيل المثال عضوه

أن منتجات النشاط التفكيرى اللاعنورى لدى واحد من مرضاي - وهو في حوالى الحادية والعشرين من العمر - لا تتظاهر للوعي في شكل افكار وسواسية فحسب ، بل أيضاً في شكل **صور وسواسية** . وقد تنبثق الافكار والصور مما او قد تظهر مستقلة بعضها عن بعض . ولدى هذا المريض كانت كلمة وسواسية بعينها وصورة وسواسية بعينها تترددان في خاطره بترايط وثيق لروح من الزمن كلما شاهد أباه يدلف إلى الغرفة .

٢ - كلمة تصر ترجمتها إلى العربية . ومعناها الاقرب : الاست الابوية .

٣ - البطريق **Patriarche** : لقب شيوخ اسباط بني اسرائيل ، ولقب كبير الاشراف عند الرومان ، ولقب كبير الاساقفة عند المسيحيين الشرقيين ، وهي تعني اشتقاقاً الأب . -م-

١ - ظهر هذا المقال لأول مرة في **الجلة الدولية للتحليل النفسى الطبى** ، المجلد ٤ ، ١٩٦٦ . -م-



التناسلي ، او استيهامات لاشعورية تفضي الى تماهي الكائن  
بتمامه بأعضائه التناسلية ، او تعابير طريفة كقولنا : «أنا كلي  
آذان » .

لقد بدا لي رسم قسّمات الوجه على بطن الصورة الكاريكاتورية  
مستغربا جدا في بادئ الامر . لكن سرعان ما تذكرت ان ناظريّ  
وقعا على شيء من هذا القبيح في الرسوم الكاريكاتورية  
الفرنسية (٤) . ثم شئت المصادفة ان تقع تحت يدي صورة من  
العصور القديمة تطابق بدقة صورة مريضى الوسواسية .

فبمقتضى الميتولوجيا الاغريقية . قدمت ديميتريا (٥) الى  
ابولوزيس (٦) بحثا عن ابنتها المخطوفة . فاستقبلها ديزولس  
وزوجته بوبو ، لكنها عافت الطعام والشراب لشدة حزنها . فرفعت  
عندئذ مضيفتها بوبو طرف رداؤها فجأة وكشفت عن بطنها .  
وأرغمتها بذلك على الضحك . ومناقشة هذه النادرة ، التي  
يفترض فيها في أرجح الظن ان تقدم تفسيراً لطقس سحري لم  
يعد اليوم مفهوما ، موجودة في المجلد الرابع من كتاب سالومون  
ريناخ : **العبادات والاساطير والاديان** (١٩١٢) . وقد جاء في هذا  
الكتاب ايضا انه اكتشف في حفريات بريينا (٧) ، في آسييا

٤ - انظر : «ألبون اللامحشمة» ، رسم كاريكاتوري لجان فيبر لانتكرا  
في سنة ١٩٠١ في كتاب ادوار فوكس : **العصر الابروسي في الكاريكاتير** ،  
١٩٠٤ «ألبون هو الاسم القديم والشعري لبريطانيا . ومعنى البيضاء . م-»  
٥ - ديميتريا : إلهة الزراعة والارض لدى الاغريق ، وابنتها كورا احضنها  
لبوبو . منك اعالم السفلي ، ونزوجها وقاسمها ملكه . م-

٦ - ابولوزيس : مدينة اغريقية كان فيها معبد مشهور يحتفل فيه بأسرار  
ابولوزيس . م-  
٧ - بريينا : مدينة ابونية قديمة في آسيا الصغرى . م-

الصفري، آجر مشوي يمثل بوبو . وهو عبارة عن جسم امرأة بلا  
رأس ولا صدر . وعلى بطنه رسم وجه ، والرداء المرفوع يحيط  
بهذا الوجه وكأنه اكليل من الشعر (٨) .

٨ - سالومون ريناخ ، المصدر المذكور أعلاه ، ص ١١٧ .

في غيـه من الوداعة والروعة ( This Sweet Woman )  
مما ترك في انطبعا آسرا . وخطرت  
الفكرة التالية : كلا ، لا وجود لله ؛ فلو  
يسوق هذه المرأة العجوز الطيبة ( This Dear Old Lady )  
الى قاعة التشريع .

« في أثناء اوبتي في عصر ذلك اليوم اني اتحدث . تحت  
تأثير المشهد الذي رأيته في قاعة التشريع ارا بالا اضع قدمي  
في كنيسة بعد ذلك اليوم ابدا . وكانت  
مذاهب المسيحية .

« لكن فيما كنت لا ازال اعمل تكري : ذلك كله ، طبق صوت  
يتكلم في داخل نفسي ، منها اياي التي يجب التفكير بمزيد من  
التروي بقراري .

« وفي الايام التالية ابان الله لثفسي بوضوح ان الكتاب المقدس  
هو كلمة الله . وان كل ما تلقن اياه عن يسوع المسيح صحيح .  
وان يسوع هو املنا الوحيد . وعلى اثر هذا التجلي صرت ارى  
في الكتاب المقدس كلام الله ، وفي يسوع المسيح منقدي . ومنذ  
تجلى لي الله مرارا ببينيات لا سبيل الى الخطا في ناوليها .

« وبصفتي طبيبا وأخا ( Brother Physician ) ارجوك  
ان توجه افكارك نحو هذا الموضوع الهام ، واؤكد لك انك لسو  
اولته اهتمامك وفتحت له كل عقلك ؛ فسيكشف الله لنفسك  
انفسا عن الحقيقة ، نظير ما فعل . . . . .

فقد اجبت مرارا . . . . .  
هذا . . . . .

## حادث من الحياة الدينية<sup>(١)</sup>

في خريف عام ١٩٢٧ نشر صحفي جرمانتي - اميركي (غ.س. فيريك) - وكنت قد سعدت بمقابلته - نص المحادثة التي دارت  
بيننا والتي تطرقت الى ضعف ايماني الديني ولامبالاتي بالحياة  
بعد الموت . وقد قرئت هذه المحادثة المزعومة على نطاق واسع ،  
وعادت عليّ ، في ما عادت ، بالرسالة التالية من طبيب اميركي :  
«... اكثر ما اثير فيّ كان ردك على هذا السؤال : هل تؤمن  
ببقاء الشخص بعد الموت ؟ وقد اجبت : «هذا عندي سواء» .  
«انني اكتب اليك اليوم لاطللك على حادثة جرت لي فسي  
السنة التي كنت انهي فيها دروسي الطبية في جامعة س...  
كنت في عصر احد الايام في قاعة التشريع حين جاؤوا بجثة امرأة  
عجوز ووضعوها على احدى طاوالت التشريع . كان وجه تلك المرأة

١ - ظهر هذا المقال لأول مرة في مجلة ايمانو ، المجلد ١٤ ، ١٩٢٨ . -ج-

اثبات ذلك . وكانت نقطة الازج في الجواب توكيده لي بأنه يصلي  
لله من اجلي بحرارة ، سائلا اياه ان يهبني الايمان الحق  
Faith To Believe .

ان هذه الصلاة لم تستجب بعد . غير ان الحادث الديني  
الذي حدث لزيميلي يدعو الى التأمل وإعمال الفكر . وقد لا أحجم  
بن القول بأنه يستاهل بذل محاولة لتأويله ورده الى دوافع  
وجدانية ، لان هذا الحادث مدعش بعد ذاته ولا يستند الى  
اساس مكين من وجهة النظر المنطقية . فمعلوم ، بالفعل ، ان الله  
يدع فظائع كثيرة اخرى تحدث خلا تواجد جثة امرأة عجوز لطيفة  
التقاطيع على طاولة للتشريح . هكذا كانت الحال في كل زمان  
وآن ، وما كان لها ان تختلف يوم كان زميلي الاميركي يستكمل  
دراسته . ومع ذلك ما كان يمكن لهذا الطبيب المبتدىء ان يكون  
جاهلا بالعالم الى حد عدم معرفة اي شيء على الاطلاق عن جميع  
تلك المصائب والفواجح . اذن فلماذا لم ينفجر تعرده على الله الا  
عندما أحس بما أحس به في قاعة التشريح ؟ ان من اعتاد على  
النظر تحليليا الى افعال البشر وأحداثهم الباطنة لا يحتاج الى  
إعمال الفكر كثيرا ليهدي الى التفسير ، بل اكاد ان اقول ان هذا  
الاخير انساب من تلقاء نفسه الى ذاكرتي . ففي اثناء مناقشة  
اوردت فيها ذكر رسالة زميلي الورع ، دويت انه كتب لي ان وجه  
جثة المرأة ذكره بوجه امه . والحال ان ذلك لم يرد في رسالته  
- وعند الامعان في التفكير نتبين انه كان من المستحيل ان يرد  
فيها ذكر ذلك - ولكن ذلك هو التفسير الذي يفرض نفسه على  
نحو لا يقاوم تحت تأثير الكلمات الرقيقة التي استذكر بها المرأة  
العجوز (Sweet Faced Dear Old Woman) . وعلى هذا الاساس  
نستطيع ان نرد مسؤولية ضعف الحكم لدى الطبيب الشاب الى  
الانفعال الوجداني الذي حركته لديه ذكرى امه . واذا لم نستطع  
ان نتحرر من تلك العادة السيئة التي جبل عليها التحليل النفسي  
باصراراه على طلب شهادة تفاصيل ودقائق قابلة لتفسير بسيط

ومغاير دونما حاجة الى الشطط والفلو ، فسنفكر ايضا ان زميلي  
وصفني لاحقا بانني طبيب واخ (Brother Physician) .

في مقدورنا اذن ان نتمثل الامور على النحو التالي : ان مرأى  
جسم المرأة العاري (او الذي سيعرّي) ذكر الفتى بامه ، وابتظ  
فيه الحنين الاموي المنبثق عن عقدة اوديب ، هذا الحنين الذي  
لن يلبث التمرد على الاب ان يقترب به كتكملة له . وبما ان الاب  
والله لم يتعدا لديه بعد بما فيه الكفاية واحدهما عن الآخر ، فان  
ارادة اثناء الاب يمكن ان تغدو واعية في صورة شك في وجود  
الله وأن تسعى الى تبرير نفسها في نظر العقل بالسطح الذي  
تثيره المعاملة السيئة التي يعامل بها الموضوع الاموي . والدافع  
الغريزي الجديد المنقول الى المضمار الديني ما هو الا تكرار للموقف  
الاوديبى ، ولهذا فانه ينتهي سريعا الى المال نفسه ، ويسقط في  
تبار مضاد قوي . وفي اثناء النزاع لا يبقى مستوى النقل ثابتا ،  
اذ لم يرد ذكر لاية حجج ترمي الى تبرير فعلة الله ، كما لم توضع  
لنا ما البيّنات الاكيدة التي اثبت بها الله وجوده للمرتاب . بل  
يبدو ان النزاع دار في شكل عصاب هلوسي ، اذ سمع المرتاب  
اصواتا داخلية ثنته من مقاومة الله . ويتظاهر مآل الصراع من  
جديد على المستوى الديني ، وهذا المآل متحدد مسبقا بمصير  
عقدة اوديب بالذات ، وهو يتمثل في خضوع كامل لمشيئة الله  
الاب ، فاذا بالفتى يرتد مؤمنا ، ويقبل بكل ما تلقن اياه منذ نعومة  
اظفاره عن الله ويسوع المسيح . فلقد عاش حدثا دينيا . وكان  
نصيبه الاهتداء .

ان هذا كله لبني غاية من البساطة والشفافية بحيث لا نسعنا  
الا ان نساءل ان لم يكن فهم هذه الحالة يشكل خطوة الى الامام  
فى سكونوجيا الاهتداء الديني . واني لاحيل القارئ هنا الى كتاب  
ممتاز لسانتك دي سالكنس (الاهتداء الديني ، بولونيا . ١٩٢٤)  
يستفيد من جميع مكتشفات التحليل النفسي . ولدى مطالعة هذا  
المؤلف يتأكد لنا ما كان يمكن لنا ان نتوقعه : صحيح ان لست

جميع حالات الإهداء قبله لسون بمن أسهوله التي أولنا به  
أجدته أبي زويناه هنا . لكن حسنا لا تناقض في أية عطف الآراء  
أبي كوتبا المبحث المعاصر بحدود هذا التوسيع . وما يميز  
ملاحظتنا هو كونها ترتبط بمناسبة خاصة تتيح للشك أن يثور  
بوره أخره قبل أن يتقلب عليه الفرد بصورة نهائية .

## التحليل النفسي واثبات الوقائع في المضمار القضائي بمنهج تشخيصي<sup>(١)</sup>

سادتي ،

أن الإدراك المتعاضم لضرورة عدم إيلاء ثقة كبيرة للشهادة ،  
التي تمثل في الوقت الراهن في مضمار العدالة أساس عدد لا  
يحصى من أحكام الادانة ، قد عزز لديكم ولا شك ، انتم قضاة  
القعد ومحامييه ، الاهتمام المنصب على منهج جديد في البحث  
والتنقيب قمين بأن يرغم المتهم على أن يثبت بنفسه ، بقرائسن

---

١ - محاضرة القاها فرويد في إطار دورس الدكتور لاوذر العملية فسي  
جامعة فيينا في حزيران ١٩٠٦ ، وظهرت للمرة الأولى في «ملفات الاندوبولاجيا  
الاجرامية وتحليل الاجرام» التي كان يصدرها هانس غروس ، المجلد ٢٦ ،  
١٩٠٦ .

موضوعية ، جرمه او براءته . وقوام هذا المنهج تجسارب سيكولوجية ، وأساسها مباحث سيكولوجية ؛ وهو وثيق الصلة بتصورات محددة لم تطوّر في مضمار علم النفس الطبي الا مؤخرا . وانا اعلم انكم في سبيلكم الى امتحان صلاحة هذا المنهج الجديد ومدى قيمته بواسطة تجارب يمكن وصفها بأنها «تمارين على اشباح» (Phantomubungen) ؛ وقد لببت بثلث دفعه رئيسكم . الاستاذ لاوفلر Loeffler : لاشرح لكم بمزيد من التفصيل وشائج هذه الطريقة بالتحليل النفسي .

انتم جميعكم تعرفون اللعبة الجماعية ولعبة الاولاد النسي مؤداها اللقاء كلمة ما وإلزام الشريك بأن يضيف اليها كلمة ثانية تؤلف ، متى ما اقتربت بالاولى ، كلمة مركبة . كقولنا مثلا : سم ، سار = سمسار . وتجربة النداعي التي ادخلتها مدرسة فونت (٢) على علم النفس ما هي الا ضرب من لعبة الاولاد هذه وان افتقرت الى شرط واحد من شروطها . وبالفعل ، ان قوام هذه التجربة إسماع شخص من الاشخاص كلمة ما - الكلمة الحانة - وعلى الشخص ان يجيب عن هذه الكلمة بأسرع ما يمكن بكلمة ثانية تحظر بباليه . وهذا ما يسمى بـ «الاستجابة» . لكن من دون ان يفرض عليه اي حد في اختيار كلمة الاستجابة هذه . وموضوع الرصد والملاحظة هو الوقت اللازم للاستجابة ، والعلاقة القائمة بين الكلمة الحانة والاستجابة ، وهي علاقة يمكن ان تكون على قدر كبير من التنوع . غير انه لا يمكن القول ان هذه التجارب تمخضت في بادئ الامر عن نتيجة مرموقة . وهذا مفهوم ، لانها اجريت من دون ان يطرح السؤال على اساس معين . وكانت تفتقر الى

٢ - **فليم فونت** : فيلسوف وعالم نفس ألماني (١٨٢٢ - ١٩٢٠) ، مؤسس علم النفس التجريبي .  
-م-

٧.

فكرة قابلة للتطبيق على النتائج المحرزة . وهي لم تأخذ كامل معناها ولم تصبح خصبة الا حين شرع بلولر (٣) Bleuler وتلاميذه في ميونيخ ، وبالاخص يونغ (٤) ، بالاهتمام بـ «تجارب الترابط» هذه . ومع ذلك لم تكتسب التجارب الاخيرة هذه من قيمة الا بفضل الفرضية التي تنص على ان الاستجابة للكلمة الحانة لا يمكن ان تكون بنت المصادفة ، بل هي متحددة بالضرورة والحتم لدى المستجيب بمضمون سابق الوجود من التمثلات .

لقد اعتدنا ان نطلق اسم «العقدة» على مضمون التمثلات القادر ، على هذا النحو ، على التأثير على الاستجابة للكلمة الحانة . وينظّاهر هذا التأثير إما بان تسمى الكلمة الحانة العقدة مسا مباشرا ، واما بان تفلح هذه العقدة في الاتصال بالكلمة الحانة عن طريق توسّطات . وجبرية الاستجابة هذه واقعة جديرة بكل انتباه ؛ او راجعتم ما كتب حول هذا الموضوع لوجدتم كم كانت الدهشة التي اثارها كبيرة وسافرة . غير انه لا مجال للشك في صدق الواقعة ، لان بوسعكم بصورة عامة ان تختبروا هذه العقدة ذات التأثير وان تفهموا ، بفضلها ، استجابات كان من شأنها ان تبقى في غير هذه الحال لامفهومة ، وحسبكم لذلك ان تستجوبوا الشخص الراذل للفعّل حول دوافع استجابته . والامثلة الواردة في الصفحات ٦ ، ٨ ، ٩ من دراسة يونغ (٥) قميّة بأن تحملنا

٢ - **يوجين بلولر** : طبيب نفسي سويسري (١٨٥٧ - ١٩٢٩) ، حاول تطبيق نظرية فرويد في علاج فصام الشخصية ، وكان يونغ مساعده .  
-م-  
٤ - **كارل غوستاف يونغ** : طبيب نفسي سويسري (١٨٧٥ - ١٩٦١) ، ساهم مع فرويد في تأسيس التحليل النفسي ، لكنه اختلف معه لاحقا وانشق عنه .  
-م-

٥ - **يونغ** : **التشخيص السيكلوجي للوظائف القانونية** في مباحث في الطب النفسي والقانون ، ١٩٠٦ ، م ٤ ، ٢ .

٧١

على شكل من - السرورات النفسية واعتباطيتها المزومة .  
 طرة على « قبل تاريخ » أفكار بلول - يونغ  
 جابة بالعقدة لدى الشخص المفحوص . في  
 بي دراسة لي (٦) ان مجموعة بكاملها مسن  
 التي كانت تعتبر لا تعليل لها ، متعينة على  
 لنا تساهم بقدر هذا التعيين في التقليل من حرية  
 وقد جعلت موضوع دراسي الهفوات الصغيرة .  
 ب لسان وعثرات قلم وتضييع للأشياء ،  
 وأوضح من "الإنسان عندما تورط في فلة لسان . لا يجوز رد  
 مس إلى المصادفة ولا الى صعوبة النطق او تشابه  
 الإحساسات . استطيع ان نكتشف في كل مرة مضمونا من  
 الذي هو المسؤول عن بليلة الأشياء وعن تحوير  
 كان بنية الشخص ان يقوله . وقد رصدت . فضلا عن  
 لدى الناس الافعال الصغيرة التي تبدو اعتباطية وبلا قصد  
 . من أفعال صغيرة فاهية وألعاب الخ ، ونزعت عنها قناعها .  
 حتى ان أبين انها «أفعال أعراضية» ذات صلة بمعنى خفي ،  
 نيفتها ان تدبر له تعبيرا لا يلفت الانتباه . وقد ثبت لنا أيضا  
 . اسما من الاسماء لا يمكن ان يخطر ببالكم من دون ان يكون  
 سبعا بعدة تمثلات ، ممكن تسليط الضوء عليها ، وحتى الأرقام ،  
 التي يجري اختيارها في الظاهر حسب المراد ، يمكن أرجاعها الى  
 عند خفية مشابهة . وقد امكن لاحد زملائي . الدكتور الفريد  
 أدنر ، بعد بضع سنوات ان يؤيد بعدد من الامثلة الجيدة هذا

٦ - علم نفس امراض الحياة اليومية في شهرة الطب النفسي وعلم  
 لأعصاب - المجلد ٥ .

التوكيد الذي كان من بين توكيداتى اكثرها اثارة للدهشة (٧) .  
 فاذا ما ألفنا هذا التصور لجبرية الحياة النفسية فهنا - وهذا  
 استنتاج تبرره نتائج الدراسة النفسية لامراض الحياة اليومية -  
 ان استجابات الشخص الخاضع لتجارب الترابط لا يمكن ان تكون  
 هي الاخرى اعتباطية ، بل لا مناص من ان تكون متوتة بضمون  
 من التمثلات يعتمل في داخل نفسه .

اخيرا ، ايها السادة ، لنرجع الى تجربة الترابط . ففي  
 الحالات التي كانت حتى الان موضع نظر ، كان الشخص المفحوص  
 هو الذي يعلمنا عن مصدر الاستجابات ، وهذا الوضع يجرد هذه  
 المحاولة من كل قيمة من وجهة النظر القضائية . لكن ماذا  
 سيحدث فيما لو عدلنا نظام التجربة ، على نحو ما نفعل عندما  
 نحل معادلة من عدة كميات بالاستناد الى كمية بعينها او السى  
 اخرى ، جاعلين من ا او ب المجهول س الذي نبحث عنه ؟ لقد  
 كانت العقدة حتى الان هي المجهولة بالنسبة لنا ، نحن  
 الفاحصين ، وكنا نبلوها ونجسها بواسطة كلمات حائة ، اخترناها  
 بارادتنا ، وكان الشخص المفحوص هو الذي يفصح لنا عن العقدة  
 التي ترغمها الكلمات الحائة على الظاهر . فلنعكس طريقة العمل ،  
 ولنختار عقدة معروفة من قبلنا ، ولنؤثر عليها بكلمات حائة مختارة  
 عن عمد ، ولننقل المجهول س الى طرف الشخص الراد للفعل :  
 افلا يمكن عندئذ ان نقرر ، بحسب نتيجة الاستجابات ، هل يحمل  
 الشخص المفحوص في داخل نفسه العقدة المذكورة ؟ انتم ترون  
 ان هذا التنظيم للتجربة يتجاوب بدقة مع وضع قاضي الاستنتاج

٧ - آذار : ثلاثة تحاليل سيكولوجية للأفكار الرفيعة وللوساوس الرقيقة  
 في اسبوعية فون برسلر للكتابات الطبية النفسانية والعصية ، ١٩٠٥ ،  
 العدد ٢٨ .

على أشكال من - السرورات النفسية واعتباطيتها المزومة .  
 طرة على « قبل تاريخ » أفكار بلول - يونغ  
 جابة بالعقدة لدى الشخص المفحوص . في  
 بي دراسة لي (٦) ان مجموعة بكاملها مسن  
 التي كانت تعتبر لا تعليل لها ، متعينة على  
 لنا تساهم بقدر هذا التعيين في التقليل من حرية  
 وقد جعلت موضوع دراسي الهفوات الصغيرة .  
 ب لسان وعثرات قليم وتضييع للأشياء ،  
 وأوضحت من "الانسان عندما تورط في فلة لسان . لا يجوز رد  
 مسد إلى المصادفة ولا الى صعوبة النطق او تشابهه  
 الإلهام . ربما نستطيع ان نكتشف في كل مرة مضمونا من  
 الذي يتبادر إلى ذهنه هو المسؤول عن بليلة الأشياء وعن تحوير  
 . كان بنية الشخص ان يقوله . وقد رصدت . فضلا عن  
 لدى الناس الافعال الصغيرة التي تبدو اعتباطية وبلا قصد  
 . من أفعال صغيرة فاهية وألعاب الخ ، ونزعت عنها قناعها .  
 حتى ان أبين انها «أفعال أعراضية» ذات صلة بمعنى خفي ،  
 نيفتها ان تدبر له تعبيرا لا يلفت الانتباه . وقد ثبت لنا أيضا  
 . اسما من الاسماء لا يمكن ان يخطر ببالكم من دون ان يكون  
 سبعا بعدة تمثلات ، ممكن تسليط الضوء عليها ، وحتى الأرقام ،  
 التي يجري اختيارها في الظاهر حسب المراد ، يمكن أرجاعها الى  
 عند خفية مشابهة . وقد امكن لاحد زملائي . الدكتور الفريد  
 أدنر ، بعد بضع سنوات ان يؤيد بعدد من الامثلة الجيدة هذا

٦ - علم نفس امراض الحياة اليومية في شهرة الطب النفسي وعلم  
 لأعصاب - المجلد ٥ .

التوكيد الذي كان من بين توكيداتى اكثرها اثارة للدهشة (٧) .  
 فاذا ما ألفنا هذا التصور لجبرية الحياة النفسية فهنا - وهذا  
 استنتاج تبرره نتائج الدراسة النفسية لامراض الحياة اليومية -  
 ان استجابات الشخص الخاضع لتجارب الترابط لا يمكن ان تكون  
 هي الاخرى اعتباطية ، بل لا مناص من ان تكون متوتة بضمون  
 من التمثلات يعتمل في داخل نفسه .

اخيرا ، ايها السادة ، لنرجع الى تجربة الترابط . ففي  
 الحالات التي كانت حتى الان موضع نظر ، كان الشخص المفحوص  
 هو الذي يعلمنا عن مصدر الاستجابات ، وهذا الوضع يجرد هذه  
 المحاولة من كل قيمة من وجهة النظر القضائية . لكن ماذا  
 سيحدث فيما لو عدلنا نظام التجربة ، على نحو ما نفعل عندما  
 نحل معادلة من عدة كميات بالاستناد الى كمية بعينها او السى  
 اخرى ، جاعلين من ا او ب المجهول س الذي نبحث عنه ؟ لقد  
 كانت العقدة حتى الان هي المجهولة بالنسبة اليها ، نحن  
 الفاحصين ، وكنا نبلوها ونجسها بواسطة كلمات حائة ، اخترناها  
 بارادتنا ، وكان الشخص المفحوص هو الذي يفصح لنا عن العقدة  
 التي ترغمها الكلمات الحائة على التظاهر . فلنعكس طريقة العمل ،  
 ولنختار عقدة معروفة من قبلنا ، ولنؤثر عليها بكلمات حائة مختارة  
 عن عمد ، ولننقل المجهول س الى طرف الشخص الراد للفعل :  
 افلا يمكن عندئذ ان نقرر ، بحسب نتيجة الاستجابات ، هل يحمل  
 الشخص المفحوص في داخل نفسه العقدة المذكورة ؟ انتم ترون  
 ان هذا التنظيم للتجربة يتجاوب بدقة مع وضع قاضي الاستنتاج

٧ - آذار : ثلاثة تحاليل سيكولوجية للأفكار الرفيعة وللوساوس الرفيعة  
 في اسبوعية فون برسلر للكتابات الطبية النفسانية والعصية ، ١٩٠٥ ،  
 العدد ٢٨ .

الذي يهمه ان يعرف ما اذا كانت بعض الوقائع المعروفة لديه معروفة ايضا من قبل المتهم بوصفه فاعل هذه الوقائع . ويبدو ان فرتهايمر Wertheimer وكلاين Klein ، وهما من تلاميذ عالم الاجرام هانس غروس Gross في براغ ، كانا اول من شرع بتعديل نظام التجربة في هذا الاتجاه ، البالغ الاهمية من وجهة نظركم (٨) .

لقد علمتكم تجاربكم بالذات انه توجد في الاستجابات . في انثناء تلك الاستنتاجات ، نقاط استدلال شتى تبين لكم ان تقررؤا هل يعاني الشخص المفحوص او لا يعاني العقدة التي تسعون الى التأثير عليها بكلمات حائة . وسوف اعددتها لكم تباعا : ١ - المحتوى اللامتوقع للاستجابة والمستوجب لتفسير ؛ ٢ - اطالة زمن الاستجابة ، اذا لم تنلق الكلمات الحائة التي مست العقدة جوابا الا بعد تأخر ملحوظ (يلغ في كثير من الاحيان اضعاف زمن الاستجابة المعناد) ؛ ٣ - الخطأ الذي يظهر في التكرار . وانتم تعلمون ما الواقعة الالفة للنظر الملمع اليها هنا . فعندما نعيد طرح مجموعة من الكلمات الحائة على الشخص المفحوص بعد مرور وقت وجيز على طرحها عليه في تجربة اولى ، نجده يكسور استجابات المرة الاولى عينها ؛ ولا يستبدل الاستجابة الاولى باخرى مغايرة الا بالنسبة الى الكلمات التي مست العقدة مباشرة ؛ ٤ - واقعة الاستمرار (وساقول بالاحرى : استمرار المفعول بعد انتهاء التجربة) . وبالفعل ، كثيرا ما يحدث ان يستمر المفعول الناجم عن استيقظ العقدة بكلمة حائة («كلمة حرجة») تعنيها (وعلى سبيل المثال اطالة زمن الاستجابة) ، فيعدل حتى الاستجابات للكلمات التالية غير الحرجة . اذن ، فحيثما تلتق هذه القرائن كافة ، او عدد كبير منها على الاقل ، تكن العقدة التي

٨ - نقلا عن يونغ ، المصدر الانف الاكر .

نعرفها قد تكشفت عن انها باعثة على الاضطراب لدى الشخص المستنطق . وعليكم ان تفهموا هذا الاضطراب على النحو التالي : ان العقدة المائلة لدى الشخص المستنطق مشحونة وجدانيا وقادرة بالتالي على سحب كمية معينة من الانتباه من مجهود الاستجابات ؛ وبذلك يحق لكم ان تروا في هذا الاضطراب حالة من حالات «الخيانة النفسية للذات» .

اعلم انكم تهتمون في الوقت الراهن بالمصادفات وبالصعوبات التي تكتنف هذه الطريقة التي من شأنها ان تقود الظنين الى فضح نفسه بنفسه موضوعيا ، ولهذا الفت انتباهكم الى الواقعة التالية: وهي انه يجري ، منذ نحو عشرة أعوام ، وفي مضمار آخر ، استخدام طريقة مشابهة تماما بغية كشف المادة النفسية الخفية او المخفية . وسأحاول ان اضع تحت انظاركم ، بقدر الامكان ، نقاط التشابه والاختلاف .

ان ذلك المضمار مغاير جدا بكل تأكيد لمضماركم . وقصدي هنا ان اتكلم بالفعل عن طريقة علاج بعض «الامراض العصبية» التي تسمى بالاعصبة النفسية والتي يمكن ان يكون من نماذجها الهستيريا والافكار الوسواسية . وهذه الطريقة تدعى بالتحليل النفسي ، وكنت انا من طورها بالاستناد الى طريقة المالجسة التطهيرية التي كان ج. بروير (٩) السباق الى استخدامها فسي

٩ - جوزيف بروير : زميل فرويد عمل معه في بداية حياته العلمية في مختبر الدكتور برنك واشترك معه عام ١٨٩٥ في تأليف كتاب بعنوان «دراسات في الهستيريا» . وكان بروير يكبره بأربعة عشر عاما ، وكان يستخدم التنبؤسم المنطيسي في علاج المرضى النفسانيين ، ثم ما لبث ان استعاض عنه بطريقة التطهير (كاثاريسيس) التي تقوم على انتزاع الاسرار التي ترهق المريض من افكار وعواطف مكبوتة . ولكن فرويد لم يقف عند الحد الذي وصل اليه بروير ، =



فبيب (١٠) . وأسبغاً لندھشہ اننی قد تبدوہا . اجد نزاماً عی .  
 ان أعرض لکم النسبہ القدیہ بین المجرم والمستر . فالامر بھم  
 کلھما امر سر . امر شیء مخفی . نكن نحاسی نكن مفارقة .  
 سیادر للحال الی التوبہ بالفارق بینھما . فالسر ندى المجرم سر  
 معروف من قبلہ وهو یخفیہ عنكم . اما المستر فمجبول من قبلہ  
 ویخفی علیہ هو نفسه . اذلك ممكن ؟ اجل . كما بتنا نعرف بعد  
 داب وظول بحث : فجميع تلك الامراض تنائی من كون اولئك  
 الاشخاص قد نجحوا نجاحاً عظیماً فی كبت بعض الذكريات  
 والتمثلات المشحونة شحناً وجدانياً قویاً ، وكذلك الرغبات المبنية  
 علی هذه الذكريات والتمثلات . بحيث ما عادت فی جملتها تلعب  
 أي دور فی فكرهم ولا تمثل امام وعیهم . وبذلك تخفی علیهم هم  
 أنفسهم . وانما من هذه المادة النفسية المكبوتة ، من هذه «العقد»  
 تنائی الاعراض البدنية والنفسية التي تقض مضاجع المرضى وكأنها  
 ضمير مبيكت . اذن فالفارق بین المجرم والمستر اساسی بصدد  
 هذه النقطة .

غير ان مهمة كل من الطبيب المعالج وقاضي الاستنطاق واحدة  
 مع ذلك ؛ فعلياً ان نكتشف ما هو خفي ومستتر فی النفسية .  
 وقد ابتكرنا لهذا الغرض مجموعة من طرائق الاستقصاء والتحري  
 التي لا تشك فی ان السادة رجال القضاء سيأخذون ببعضها .  
 لعل من المفيد لکم ، من وجهة نظر علمكم ، ان تعلموا كيف  
 نعمل نحن الاطباء فی مضمار التحليل النفسي . فبعد ان يروي

= فانصمت عری التعاون بین الامین . ومضى فروید فی طريق التحليل النفسي  
 وحيداً . وقد كتب فروید فيما بعد يقول : ان تطور التحليل النفسي قد كلفه  
 صداقة بروير وانه لم يكن من السهل علیہ دفع هذا الثمن . لكن . لم يكن فی  
 مقدوري ان انقادی ما كان .  
 —

١٠ - ج . بروير وسفر . فروید : دراسات فی الهيستيريا ، ١٨٩٥ .

المرض لمرّة أولى قصته . مدعوه إلى إيمان قباد نفسه لتداعياته  
 وأى إخبار . ثم رد إلى خضره لا تقييد نفدي . ونحن بذلك  
 سطق من مرضيه . لا شخراً هو نفسه إياها . وموداهما ان  
 نداعيه ان يكون اعنائه . بل ستتحدد بعلاقتها بسره ،  
 - اعنائه . بحيث يمكن اعتبارها . اذا جاز القول . فسائل (١١)  
 من عقده . وكما ترون . فلنا عن الفرضية التي بفضلها وجدتم  
 انه من الممكن ذویل تجارب الترابط . غير ان المرض . الذي  
 نطلب اليه ان يتبع القاعدة وأن يبلغنا بكل تداعياته ، لا يبدو قادراً  
 على فعل ذلك . فهو يمسك عنا تارة واحداً من تلك التداعيات ،  
 وطوراً واحداً آخر . متوسلاً بذرائع شتى : فإما ان هذا التداعي  
 عادم الأهمية . وإما انه خارج نطاق المسألة ، وأما انه عارٍ من كل  
 معنى . وعندئذ نطالبه بإطلاعنا على تداعيه ، وبمتابعته بالرغم من  
 تلك الاعتراضات . وذلك على وجه التحديد لان هذا النقد ، باعلانه  
 عن نفسه وتظاهرة للنور ، يقدم لنا دليلاً على ان ذلك التداعي ذو  
 صلة بالعقدة التي نسعى إلى كشفها . ونحن نرى في مسلك  
 المريض هذا تجلياً لـ «المقاومة» الكامنة فيه ، هذه المقاومة التي  
 تبقى مائلة طول مدة العلاج . وبودي الإشارة باختصار إلى ان  
 فكرة المقاومة هذه قد تنبست اعظم الأهمية في فهمنا لتكوين المرض  
 ولأولية شفاؤه على حد سواء .

ولا يسعكم ان تلاحظوا مباشرة هذا النوع من نقد الذات .  
 في تجاربكم ؛ وبالمقابل تسج لنا الامكانية في التحليل النفسي .  
 نرصد جميع المؤشرات والفران البارزة المألوفة من قبلكم والدالة  
 على عقدة ما . فحين لا يعود المريض يجرؤ على مخالفة القاعدة

١١ - الفسائل ومفرداتها قديمة : في الاص كل عود يقطع من شجرته  
 فينقرس .  
 —

التي املت عليه . نلاحظ مع ذلك انه يتوقف احيانا في تقبل تداعياته الينا ، وانه يتردد ويطلب الوقتات . وكل تردد من هذه الترددات ينم في نظرنا ، نحن ، عن تظاهر للمقاومة ويكون لنا بمثابة علامة على الانثناء الى «العقدة» . والحال انه اهم مؤشر بالنسبة الينا ، مثله مثل امالة زمن الاستجابة بالنسبة اليكم . وقد جربنا هذا المجرى في تاويل النردد . حتى عندما لا يكون هناك ما يدل على ان مضمون التداعي المجموع ينطوي على أي إشكال، وحتى عندما يؤكد المريض ويجزم بأنه لا يستطيع ان يدرك لماذا نفرض انه يتردد في نقله الينا . والوقتات التي نلاحظها فسي التحليل النفسي هي بوجه عام اطول مدة من التأخرات التي تسترعي انتباهكم في تجارب الاستجابة .

اما ثاني مؤشر لمعروف لديكم من مؤشرات العقدة ، اي تعديل مضمون الاستجابة ، فيلعب ايضا دوره في تقنية التحليل النفسي . فقد اعتدنا ان نرى دوما في ايسر تغيير بطرا لدى مريضنا على طريقة التعبير عن افكاره اشارة الى معنى خفي ، وقد نعرض انفسنا ، حتى عن طوعية ، بتمسكنا بمثل هذا التأويل . لسخرينه وهزئه لآمد من الزمن . ونحن نترصد لديه على وجه التحديد العبارات التي يتظاهر فيها اللبس والتي تشف ، من خلال التعبير الحيادي ، عن المعنى الخفي . وليس المريض وحده ، بل حتى الكثيرون من زملائنا الجاهلين بالتقنية التحليلية النفسية وبشروطها الخاصة . ابون هنا ان يحضنوا نكتهم و يسموننا بالشطط في الشطارة وبالغفلة في التدقيق بالامور وفي تأويلها ؛ بيد ان الحق غالبا ما يكون معنا في نهاية المطاف . وفي الحقيقة . ليس من العسير ان ندرك ان السر المكتوم بعناية لا ينم عن نفسه الا بالمعات طفيفة ، متنسبة المعنى في احسن الاحوال . ونفسى النهاية يعتاد المريض على ان يقدم لنا في شكل «وصف لامباشر» كل ما نحن بحاجة اليه لإمالة اللثام عن العقدة . وفي مجال أكثر انحدا : نستخدم في التحليل النفسي ثالثة

قرانكم على العقدة ، الخطأ ، اي التغيير في التكرار . فاحدى المضللات التي كثيرا ما تطرح علينا تتمثل في تاويل الاحلام ، اي في ترجمة مضمون حلم تحفظه الذاكرة الى معناه الخفي . وقد نجد انفسنا احيانا في حيرة من امرنا ازاء الزاوية التي يجدر بنا ان نطرق منها المضلة ، وعندئذ يسعنا استخدام قاعدة اكتشفت اختباريا ومؤداها ان نحمل الحالم على ان يكرر على مسامعنا قصة حلمه . وعندئذ ، وبوجه عام ، يعدل الحالم طريقته فسي التعبير عن افكاره في نقاط شتى ، بينما يكرر اقواله بأمانة في نقاط اخرى . وعندئذ ايضا نعكف على تلك النقاط التي شاب فيها النقل عيب ما . بفعل التعديل . وغالبا بفعل الإغفال ايضا ، على اعتبار ان هذه اللامانة في النقل هي لنا بمثابة تأكيد على العلاقة بالعقدة ، ووسيلتنا المثلى الى طلب المعنى الخفي للحلم (١٢) . لكن لا تحسبوا انني انتهيت من بيان التطابقات التي اجد في طلبها عندما ساعترف لكم بأنه لا توجد في التحليل النفسي ظاهرة مماثلة لظاهرة «الاستمرار» . ومرد هذا الفرق الظاهري السى الشروط الخاصة لتجاربكم . فانت لا تتركون ، بالاجمال . لمفعول العقدة الوقت الكافي ليتظاهر ؛ فما ان تبدأ بتاتين منعونها حتى تصرفوا انتباه الشخص المفحوص بكلمة حائة ، حيادية فسي الاجمع ، ولربما لاحظتم عندئذ ان هذا الشخص يبقى احيانا مشغولا بالعقدة بالرغم من البلبلة التي عرضتموه لها . اما نحن فنحاذر ان نعرض الشخص الذي نحلله لمثل هذه البلبلة ، وندع مريضنا مشغولا بعقدته ؛ وبما ان كل شيء لدينا «استمرار» ان جاز التعبير ، فاننا لا نستطيع ان نرصد هذه الظاهرة على حدة وممزولة عما عداها .

وبوصفي تؤكد ما يلي : اننا نواصل بصفة عامة ، بالفاروق  
التي ابتنتها لكم . الى توعية المريض بمرده اي بالمكبوت ، والى وضع  
حد بالنسبة للعصبيين السيكولوجي لاغراض دابة . لكن فببيل ان  
تستخلصوا من هذا النجاح استنتاجات بصدد انتجاح المحنصل  
لمباحثكم انتم . سنحدد هنا بعض الفوارق التي ينسجم بها الوضع  
السيكولوجي .

كنا اسلفنا التنويه بالفارق اثيريسي : فالمر لدى المريض  
العصبي سر بالنسبة الى وعيه بالذات ، اما لدى المجرم فلا سر الا  
بالنسبة اليكم انتم ؛ لدى الاول جهل فعلي . وان لم يكن بجميع  
العاني انني يمكن ان تعطى للكلمة ؛ اما لدى الثاني فلا رجود الا  
لتظاهر بالجهل ، ويترتب على هذا فارق مهم آخر من وجهة النظر  
العملية . ففي التحليل النفسي يحاول المريض ان يسعدنا بمسا  
يبذله من مجهود واع ضد مقاومته ، اذ انه يتوقع ان يعود عليه  
الفحص بفائدة : الشفاء ؛ وبالمقابل لا يعمل المجرم معكم . لانه لو  
عمل معكم لعمل ضد كل اتاه . وبالمقارنة ، فان مطلبكم الوحيد  
من تحليلكم الوصول الى تيقن موضوعي ، بينما لا بد ، في فن  
الشفاء ، من ان يصل المريض نفسه الى مثل هذا التيقن . غير انه  
يبقى ان نعرف ما العقيبات وما التعديلات التي سيفرضها على  
طريقتكم انعدام هذا التعاون من جانب الشخص المحروس . وهذا  
وضع لن يكون في مفدوركم ابدا على كل حال ان تحاكوه فسي  
تعاريتكم المدرسية ، لان الزميل اندي ستولي عندئذ دور الفطن  
سيف

باطراد لدى المرضى العصبيين النفسانيين عقدة جنسية مكبوتة  
(بأوسع معاني الكلمة) ، فهذا ما لا نقيم له اعتبارا من منظور  
الفروق . لكن لمة شيئا آخر . ففهمه التحليل النفسي يمكن  
تحديدتها على النحو القضي التالي في الاحوال طرا : ان المطلوب  
اكتشاف عقد مكبوتة بفعل مشاعر الكدر والتنفيس ، وهي عقد  
تصدر عنها ، متى ما حاولت دخول مجال الوعي ، اشارات  
مقاومة . وهذه المقاومة موضعية بمعنى ما : فمكانها التخيم  
الفاصل بين الاشعور والشعور . اما في الحالات التي تولونها  
اهتمامكم فالمقاومة تابعة بنعماها للشعور . وهذا الفارق لن  
يسمكم التفاضل عنه ، بل عليكم ان تبادروا ، بواسطة التجارب،  
الى التاكيد مما اذا كانت المقاومة الواعية تفضح او لا تفضح نفسها  
بالعلامات عينها التي تنم بها المقاومة اللاواعية عن نفسها . وبخيل  
الي ، علاوة على ذلك ، انكم لا تستطيعون ان تقنعوا بيقين فيما ان  
كان من حقكم تاويل قرائنكم الموضوعية على العقد على انها  
مقاومات ، كما نفعل ، نحن المعالجين النفسانيين . وبالرغم من  
ان ذلك ليس متواترا لدى المجرمين ، فقد يحدث ان تكون العقدة  
التي مستموها لدى الاشخاص موضوع تجاربكم مشحونة  
باللذة ، ومن الجائز في هذه الحال ان تتساءلوا عما اذا كانت  
ستصدر عنها استجابات مماثلة لتلك التي كانت ستصدر عنها  
فيما لو كانت مشحونة بالكدر والتنفيس .

بودي التنويه ايضا بما يلي : قد يحدث ان يدخل عنصر ما في  
تجربكم ، عنصر عادم الوجود بالطبع في التحليل النفسي . ففي  
اثناء استقصائكم وتحريككم قد يضللكم مريض عصبي برده الفعل  
وكانه مذبذب ، مع انه بريء ، وهذا لان الشعور بالذنب الكامن  
لديه والواقف بالمرصاد على الدوام يهتيل الفرصة التي يتيحها له  
الاتهام الموجه اليه . ولا تحسبوا هذه الحالة اختلافا لا طائل فيه ؛  
بل حسبكم ان تنوجهوا بفكركم الى غرفة الاولاد لترصدوا حالات  
مناظرة لها كثيرة . فقد يحدث ان تنحوا بالوم على ولد مسن

الأولاد على عمل ما سيء ، فينكر بيقين راسخ غلظته ، لكنه في الوقت نفسه يبكي وكأنه خاطيء ضئيل في الجرم المشهود . وقد يداخلكم الاعتقاد بأن الولد يكذب اذ يؤكد براءته ، لكن قد لا يكون كذلك هو واقع الحال . فالولد لم يرتكب حقا ذلك العمل السيء الذي تهمونه به ، بل ارتكب محله وبدلا منه عملا سيئا آخر اتم به جاهلون ولا تلمونه عليه . اذن فهو محق في إنكار ذنبه المتعلق بأحد المعلمين السيئين ، لكنه يفضح في الوقت نفسه شعوره بالذنب عن العمل السيء الآخر . والمريض العصبي الراشد يتصرف هنا ، كما بصدد نقاط أخرى كثيرة ، تصرف الولد . وكثيرون هم الافراد الذين من هذه الشاكلة ، ومن الجائز لنا ان نتساءل عما اذا كانت طريقتكم ستتوصل الى تمييز هؤلاء الناس - الذين يضعون انفسهم بانفسهم على هذا النحو موضع اتهام - من المذنبين الحقيقيين . وسأضيف ايضا ما يلي : انكم تعلمون انه لا يحق لكم ، بموجب قانون الاستنطاق الجنائي ، استخدام سلاح المباغنة مع الظنين . وعليه ، فهو سيعرف سلفا ان المطلوب منه الا يفضح نفسه اثناء التجربة ، وبوسعنا بالتالي ان نتساءل ان كان من الجائز ان نتوقع استجابات متعائلة في حال تركيز الانتباه على العقدة كما في حال انصرافه عنها ، والى اي حد يمكن لنية الكتم والإخفاء ان تؤثر على كيفية الاستجابة لدى هذا الشخص او ذلك .

وعلى وجه التحديد لان الاوضاع التي يفترض فيكم ان تجروا فيها تجاربكم تتميز بالتنوع الشديد ، ترون علم النفس يهتم بالغ الاهتمام بنجاحها . وقد يكون من المحبذ ان نتوجه اليكم بالرجاء بان لا تبتسوا بأسرع مما ينبغي من جدواها العملية . اما انفسا شخصا ، فان كنت من ابعد الناس بحكم اهتماماتي عن المساهمة في مزاوله القضاء ، فلن أثقل عليكم مع ذلك فيما لو عرضت عليكم اقتراحا آخر . فمهما تكن ضرورية التمارين المدرسية على

التحضير للاستنطاقات الجنائية ، فلن تتوصلوا ابدا الى استباق الوضع السيكولوجي الذي يكون عليه المتهم اثناء التحقيق فسي دعوى ما . فما تمارينكم هذه الا «تمارين على الاشباح» ولا يمكن بحال من الاحوال ان تسوغ التطبيق العملي لهذه الطريقة فسي دعوى جنائية . واذا كنا لا نريد العزوف عن الافادة منها ، فمامنا الى ذلك الوسيلة التالية . فمن الضروري ان يباح لكم ، بل ان يفرض عليكم كواجب ان تقوموا بمثل هذه الابحاث طول سنوات وسنوات في كل ما يعرض لكم من دعاوى الاتهام الجنائي الفعلية، ولكن من دون ان يؤذن للنتائج التي ستحوزونها عن هذا السبيل بالتأثير ولو بأقل مقدار على قرارات العدالة . والافضل في هذه الحال الا يتناهى الى العدالة العلم بالاستنتاجات التي تكون ابحاثكم قد قادتكم اليها بصدد تجريم المتهم . وانما بعد قضاء سنوات كثيرة في تجميع الوقائع وإخضاع النتائج المحرزة لفحص مقارن ، يمكن ان تتبدد الشكوك بصدد المنفعة العملية لهذه الطريقة فسي التحري السيكولوجي . وأنا اعلم ، بكل تأكيد ، ان تحقيق هذه الامنية ليس منوطا بكم وحكمكم وباستاذكم النابه الذكر .

في فكرة الحلم» .

ويبدو أن مفسري الاحلام في العصور القديمة قد استخدموا على اوسع نطاق الفرضية التي مؤداها ان الشيء يمكن ان يدل في الحلم على نقيضه . ويسلم بهذه الامكانية ايضا الباحثون المعاصرون في مضمار الاحلام . وذلك بقدر ما يقرون بصفة عامة بان للحلم معنى وتأويلا (٢) . واعتقد انني لا اثير المعارضة انسا الاخر عندما افترض ان جميع الذين ساروا معي على طريق التأويل العلمي للاحلام قد اقرروا ولا بد بان التوكيد الانف الذكر قد اثبتت صحتة الوقائع .

لقد تيسر لي ، اثناء مطالعتي بالمصادفة لكتاب بقلمه لك. آييل (٣) ، ان افهم سر هذا الميل الغريب الذي يتسم به عمل الحلم : اعني نزوعه الى تجاهل الناقض والى التعبير بتمثل واحد عن اشياء متعاكسة . واهمية الموضوع سنبرر في الاستشهاد هنا حرفيا بالمقاطع الفاصلة من بحث آييل اوسع استيعادي معظم الامثلة . وهي تطلعا . بالفعل ، على هذا الامر الباعث على العجب : ان النهج الانف الذكر ، الذي اعتاد عمل الحلم سلوكه ، هو ايضا من خصائص اقدم اللغات المعروفة . فبعد ان ثبت آييل قديم اللغة المصرية ، التي تكونت - ولا بد - قبل زمن طويل من عصر النقوش الهيروغليفية الاولى .

يرد ف قوله :

«اذن تشتمل اللغة المصرية . وهي الاثر الثمين الوحيد المتبقي

## طباق المعاني في الالفاظ البدائية (١)

كمدخل الى هذا المجال سورد فقرة من كتابي علم الاحلام اعرض فيها ملاحظة مستنتجة من البحث التحليلي ، وهسي ملاحظة لم تحظ بعد بتفسير :

«ان الطريقة التي يعبر بها الحلم عن مقولتي التضاد والتناقض لباعثة على الدهشة حقا : فهو لا يعبر عنهما ، بل يبدو وكأنه يجهل ال «لا» . ولكم يبرع في الجمع بين الاضداد وفي تمثيلها في موضوع واحد . وكثيرا ما يمثل ايضا عنصرا من العناصر بنقيضه ، بحيث لا يسعنا ان نعرف ان كان عنصر بعينه من الحلم - قابل لتأويل متناقض - شي بمضمون ايجابي او سلبي

٢ - انظروا ، على سبيل المثال ، غ. ه. فور شوبرت : رمزية الاحلام . الطبعة الرابعة . ١٨٦٢ ، الفصل ٢ : لغة الحلم .

٣ - صدر عام ١٨٨٤ على شكل دراسة قبل ان يضمه الكاتب في . . . التالية الى مجموعة الدراسات في لغة .

١ - هذا التعليق على كتاب كارل آييل (١٨٨٤) الذي يحمل العنوان نفسه ظهر لأول مرة في حولية الشكوف العليقية النفسية والارضية النفسية . المجلد ٢ ، ١٩١٠ . -

من عالم بدائي ، على عدد معين من الالفاظ التي لها معنيان ، واحدهما هو بالضبط نقيض الآخر . ولنتصور : اذا كان فيسي مقدورنا ان نتصور شيئا من هذا القبيل ، استحالة منطقية صارخة كالاستحالة التالية : ان كلمة **قوي** تعني في آن واحد القوي والضعيف ؛ وكلمة **ضوء** تفيد في الدلالة على الضوء والظلمة معا ؛ لتخيل ان بورجوازيا من ميونيخ سمي **الجمعة** جمعة ، بينما استخدم بورجوازي آخر اللفظ نفسه في الكلام عن الماء ؛ فهذا يمكن ان يكون مثالا على الطريقة العجيبة التي كان قدامى المصريين يستعملون بها عادة لغتهم . وهل نستطيع ان نلوم ، بعد ذلك ، من اذا طرق مسامعه هذا الكلام هز راسه غير مصدق ؟...» (ص ٤) (وتلي ذلك امثلة) .

«ازاء هذا المثال وغيره من الامثلة المشابهة الكثيرة على هذا الاستعمال الطباقى للفظ الواحد ، لا يمكن ان يخامرنا الشك في انه قد وجد ، في لغة **واحدة** على الاقل ، عدد معين من الالفاظ التي تشير الى الشيء ونقيضه معا . ومهما بدا ذلك باعثا على الاستغراب ، فاننا هنا امام واقعة لا مناص لنا من اخذها في حسباننا» (ص ٧) .

ويرفض المؤلف هنا التفسير الذي يعطى لهذا الوضع بجناس عرضي ، وينكر ، بقوة مماثلة ، الفكرة التي ترد هذا الوضع الى نقص في التطور العقلي المصري .

«والحال ان مصر لم تكن بحال من الاحوال موطنين العيب واللامعقول . بل كانت على العكس موطننا من اقدم مواطن العقل البشري الذي كان قيد التطور ... كان لها نظام اخلاقي صاف يفيض نبلا ، وقد صاغت القسم الاكبر من الوصايا العشر في زمن كانت فيه الشعوب ، الموقوفة عليها الحضارة اليوم ، لا تزال تقدم الاضاحي البشرية لاصنامها الظمئة الى الدم . وان شعبا اشمل مصباح العدالة والحضارة في مثل تلك الازمنة المظلمة ما كان له ان يكون بليدا الى هذا الحد في طريقته اليومية في الكلام والتفكير...»

وهؤلاء الناس ، الذين كانوا يتقنون صناعة الزواج ، والذين كان يسعهم ان يحركوا ويرفعوا بالالات كتلا ضخمة ، كان لديهم — ولا بد — قدر كاف من العقل كيلا يعتبروا ان شيئا من الاشياء هو ذاته ونقيضه في آن معا . فكيف توفيق بين هذه الوقائع وبين الواقعة الاخرى المتمثلة في ان المصريين حبسوا انفسهم بمثل تلك اللغة الغريبة والمتناقضة ... واعتادوا ان يعطوا الافكار الاشد تضادا جناسا لفظيا واحدا ، وان يربطوا في ضرب من اتحاد لا تفصم عراه بين ما يتنافى شقاه اشد التنافي ؟» (ص ٩) .

قبل ان نحاول الاتيان بأي تفسير ، لا بد لنا ان نأخذ في اعتبارنا ايضا ان نهج اللغة المصرية العجيب هذا قد تعزز وتوطد . «لعل الاغرب بين جميع غرائب المعجم المصري ما يلي : فعلاوة على الالفاظ التي تجمع بين المعاني الاشد تعارضا ، توجد في هذا المعجم كلمات مزجية يؤلف فيها لفظان متعاكسا المعنى مركبا ليس له سوى معنى واحد فقط من معنيي العنصرين المكونين له . وهكذا نجد ان تلك اللغة العجيبة لا تحتوي فقط على الالفاظ تعني **قويا وضعيفا** في آن معا فحسب ، او **امر واطاع** فحسب ، بل كذلك على كلمات مزجية مثل **شيخ - فتى - بعيد - قريب** ، **ربط - فصل - خارج - داخل** ... وعلى الرغم من هذا الجمع بين الفاظ ذات معان متنافرة ، فان اولي هذه الكلمات لا تعني سوى **فتى** ، وثانيها **قريب** ، وثالثها **ربط** ، ورابعها **داخل** ... اذن فمن قصد وعمد حقا جرى الجمع في هذه الكلمات بين تناقضات في المفاهيم ، وذلك ليس بهدف خلق مفهوم جديد . كما يحدث في اللغة الصينية احيانا . بل فقط بقصد التعبير بواسطة تلك الكلمة المزجية ، عن معنى جزء واحد فقط من جزئيات المتضادين ؛ علما بان هذا المعنى كان يمكن ان يؤديه هذا الجزء المنفرد وحده ...» .

يبد ان هذه المشكلة اسهل حلا مما يبدو . فمفاهيمنا ترى التفرق

بالاستناد الى المقارنة . «فلو كان الكون ميّرا طول الوقت لمسا احتجنا الى اجراء اية مقارنة بين النور والعتمة ، ولما وجد لدينا لا مفهوم النور ولا لفظه ...» - «من الواضح ان كل شيء نسبي فوق هذه الارض وليس له من وجود مستقل الا بقدر ما تسع له علاقته بالاشياء الاخرى بالاقتراب منها او بالتمييز عنها ...» - «ما دام المفروض في كل مفهوم ان يكون الشفيق انتماء لتقيضه ، فكيف امكن تعقله لأول مرة بالفكر . وكيف امكن نقله الى الآخرين الذين يحاولون بدورهم ان يتقلوه بالفكر . ان لم يكن بقياسه الى تقيضه ؟...» - «ما دام مفهوم القوة غير قابل للتصور خارج اطار طباقه مع الضعيف ، فان الكلمة التي كانت تعبر عن **القوي** اكتسبت في الذاكرة معنى **الضعيف** ايضا . على اعتبار ان هذا المفهوم الاخير هو الذي اناح لها في البداية امكانية الوجود . وفي اواقع ، ما كانت هذه الكلمة تشير لا الى القوي ولا الى الضعيف حقا . اما فقط الى العلاقة بينهما والى العارق الذي خفيهما كليهما» (ص ١٥) - «والحال ان الانسان قد استطاع اكتساب اقدم تصوراته الاساسية الا بفعل التناقض بين الضد وضده ، فليس رويدا رويدا بعد ذلك تعلم ان يفصل بين لفظي الطباق ، وان يتعدل كل واحد منهما بالفكر من دون ان يقيسه عن عمد بالآخر» . وما دام الكلام لا يفيد فقط في صوغ الفكر الفردي ، بل اساسا وجوها في اتصاله الى الغير . فمن الجائز لنا ان نتساءل عن الوسيلة التي كان «المصري البدائي» يلجأ اليها لابلأغ نداءه ب «الجزء الذي يقصده في كل مرة من هذا المفهوم المزيج» ؟ لقد كان ذلك يتم في الكتابة بواسطة ما يسمى بالصور «المعينة» . اي الصور التي كانت ترسم خلف الحروف المكتوبة لتشير الى معناها من دون ان يكون مطلوبا النطق بها هي نفسها . «حين تعني كلمة كين المصرية **قويا** ، ترسم خلف الصوت الذي تعبر عنه الحروف المكتوبة صورة رجل واقف مسلح ؛ وعندما تعني هذه الكلمة عيناها **ضعيفا** ، ترسم خلف الحروف المثلة للصوت صورة

رجل جرس سمع . ويحفظ الكلمات الاخرى ذات المعاني ترفق على نحو مماثل بضرورة تفسيرية . ان هذا ، وبحسب ما نذهب اليه آبل ، كانت احركة المصاحبة لتلكه المتأخرة هي التي يعظم معناها المراد في اللغة المنطوقة .

ان **الجذور الاكثر بدائية** هي الجذور التي نتجعت منها . على ما سنتك آبل ، ظهرت المعنى الطباقي المزدوج ، اما في مجرى تطور اللغة اللاحق ، فان هذا المعنى المزدوج تلاشى وبسبب . وتوسعنا ان ننبع ، في اللغة المصرية القديمة على أي حال ، جميع التدرجات الانتمائية من المعنى الطباقي المزدوج التمدد الى المداول الواحد الذي تكلمت في لغتنا الحديثة . فالكلمات المزدوجية المعنى في الأصل تنفصل في اللغة اللاحقة الى كلمتين لكل منهما مداول واحد . وطرا على كلا المعنيين المتنافسين بنفس المعدل صرتي على الجذر الواحد . فكلمة **كين** اقوي . ضعيف . على سبيل المثال ، انفصلت حتى في الكتابة الهيروغليفية الى **كين** قوي ، والى **كان** ضعيف ، وبعبارة اخرى ، ان المعاني التي ما امكن الإهداء اليها الا طباقا نصير مع مرور الزمن مدونة لدى المعنى المشري الى حد كمي لتوفر وجود مستقل لكل واحد من الجزئين ومن تلقى مماز في الوقت نفسه لكل منهما» .

وبرى آبل ان هذه التبرهة - اسفلة الاجراء الرسمية الى اللغة المصرية - على وجود طباق في المعاني البدائية . فبينة للمعنيين ايضا على التذب انتمائهم وانتمائهم - الاوروبية ، العربية ان نعرف الى أي مدى يمكن ان يحدث ذلك في امر لغوية اخرى : وآية ذلك انه وان كن المعنى الطباقي قد فرض نفسه في بدى الامر . ولدى جميع العروق والاجناس . على البشر الذين اجروا عمليات تفكيرية . فليس من الضروري ان يكون قد جرى تعرفه او المحافظة عليه في كل مكان» .

ويلاحظ آجيل علاوة على ذلك ان الفيلسوف بين (١) Bain قد صادر . استنادا الى أسس نظرية خاصة وعلى سبيل الضرورة المنطقية . على هذا المعنى المزدوج للكلمات . وهذا من دون ان طبع . على ما يبدو . على الوقائع . والمقطع المسار منه . **الانطسقي** . الكتاب ١ . الفصل ٥٤ ، يبدأ على السبيل التالي : ان النسبية الجوهرية لكل معرفة او فكر او وعي لا يمكن الا ان يعكس نفسها في اللغة . واذا نظرنا الى كل ما نعرفه على انه نحوي وانفصل من شيء آخر . فان كل تجربة لا بد ان يكون لها وجهان : فاما ان تكون لكل اسم معنيين واما ان يكون لكل معنى اسما .

وانوه ايضا بما ورد . في **ملحق فون بسيلان لاعداد المعاني في اللغات المصرية والهندية - الاوروبية والعربية** . من امثلة فمينه بان تسنوقف انتباهنا وان لم تكن من علماء اللغة : فكلمة Altus باللاتينية تعني عليا وعميقا : وكلمة Sacer معناها قديس وملعون : أي ان المعاني المتناقضة بقيت هنا كما هي دونما تعديل حتى في طريقة النطق بها . اما التبدل الصوتي يهدف فصل الاسداد فمن امثله : Clamare اي صرخ . و Clam اي صامت وهادي . و Siccus اي جاف . و Succus اي عصير . وفي الألمانية . لا تزال كلمة Boden تشير حتى يومنا هذا الى أعلى ما في البيت كما الى أدنى ما فيه . ومقابل كلمة Bos الألمانية (طالغ) هناك كلمة Bass (صالح) . ويتعارض الكلمة الساكنة القديمة Bat (صالح مع الكلمة الانكليزية Bar (طالغ) . ومقابل كلمة To Lock (اغلق) في الانكليزية هناك في الألمانية Loch , Lucke (فراغ) . فغب . وفي الألمانية

٤ - الكسندر بن : فيسوف استحدثى ١٨١٨ - ١٩٠٣ . مؤلف علم العربية و **التلفظ** .  
٥ - الانكليزية في التلفظ .

Kleben الصق . وفي الانكليزية To Cleav شق . وفي الألمانية Stumm (الكلمة) . و Stimme (صوت) . الخ . وهكذا قد يكون في وسعنا ان نجد معنى حقيقيا للاشفاق الذي طالما اتار اسخريته : Lucus A Non Lucendo . لمصادر الانتماء في كتابه **اصل اللغة** Ursprung Der Sprache ص ٣٠ . الى مخنقات اخرى ايضا من نمط الفكر البدائي . فالانكليزي لا يزال يقول الى اليوم كما يعبر عن "بدون" : Without . اي "مع - دون" : كما ان الروسي الشرقي يستخدم تعبير Mitohne . وحتى اللفظ With الذي يقابله باللاتينية Mit (مع) . كان يدل في الاصل - ولا بد - على **مع و بدون** معا . كما نستطيع ان نشين ذلك من Withdraw (انصرف . انسحب) ومن Withhold (استبقى) . وهذا الطور عينه نلناه في اللفظ الالمانى Wider (ضد) و Wieder (معا) .

ولغة المصرية خاصة اخرى بالغة الغرابة ، ولزام علينا من جديد ان نقيم مقارنة بينها وبين عمل الحليم . ففي المصرية يمكن ان تتعرض الكلمات - لنقل ظاهريا في بادئ الامر - لانتقال في **معناها** كما في معناها . نفترض ان الكلمة الالمانية Gut (صالح) هي كلمة مصرية . فعندئذ يمكن ان تعني «طالغ» بالإضافة الى «صالح» . كذلك فان Gut يمكن ان تلفظ Tug . وهذا القلب . الاكثر تواترا من ان يمكن عزوه الى الاتفاق والمصادفة . يمكن التمثيل عليه ايضا بأمثلة كثيرة مستقاة من اللغات الآرية والسامية . وان اقتصرنا كيداية على التعابير الجرمانية نجد ان لدينا : Tope - Pot و Boat - Tub و Care - Reck و Hurry - Ruhe و Wait - Tauwen و Club و Balken - Klobe . وان احتكمنا الى اللغات الهندية - الاوروبية الأخرى . رجلا عدد حالات انقلب لزيدا طردا مع عدد التعابير من فروع المفرد . فغلب على سبيل المثال : Capere - Packen



ren - Niere Folium ( Blatt ) the leaf , (ورقصة)  
 - dum - a , domos (باليونانية, mèdh, mùdha,  
 Kur - iti (بالسنسكريتية, - rauchen, fut,  
 kreischen - to shriek الخ .

يسمى آيبل الى تفسير ظاهرة القلب الصوتي للالفاظ بتضعيف  
 الجذر وتشديده . وقد يشق علينا ان نجاري هنا قلبه اللغة .  
 وسندكر بهجة الاولاد حين يلعبون بقلب الكلمات صوبيا . وبلجوء  
 عمل الحلم تواترا الى قلب المادة الفكرية لفايات شتى . لكن  
 ليس ترتيب الحروف هو ما يقلب في هذه الحال . بل ترتيب  
 الصور . اذن فنحن امثل الى عزو قلب الاصوات الى عامل بفعل  
 فعله على مستوى اعلى (٦) .

ان التوافق بين خصائص عمل الحلم التي اشرنا اليها فسي  
 مسنهل هذا المقال وبين خصائص العرف الالسنى الى اكتشافها  
 فقيه اللغة في اقدم اللغات ، يبدو لنا بمثابة توكيد للتصور الذي  
 كونه لانفسنا عن التعبير عن الفكر في الحلم ، وهو تصور مؤداه  
 ان لهذا التعبير طابعا تكوصيا سحق القدم . وهنا لا نستطيع ان  
 نرد عنا . نحن الاطباء انفسانيين . فكرة مؤداه اننا سنكون أقدر  
 على فهم لغة الحلم وعلى ترجمتها فيما لو كنا اكثر اطلاعا على  
 تطور اللغة (٧) .

٦ - حول ظاهرة الابدال في اللغة ، وفي ظاهرة قد تكون اولى صلة ايضا  
 من المسمى العكسي (الطباقي) بعمل الحلم ، فانونا اصا مع فـ. ماير - رينلن  
 W. Meyer - Rinteln في المصحفة الكولونية (Kolnische Zeitung)  
 تاريخ ٧ اذار ١٩٠٩ .

٧ - من الطبيعي الافتراض بان المعنى الاصلي الطباقي للكلمات يمثل الاواني  
 المسبقة الكون التي نستخدمها فنة اللسان في خدمة ميول نسي : فعوام هذه  
 الفلته ان يقول الانسان عكس ما كان يريد قوله .

## صعوبة امام التحليل النفسي (١)

سابداً بالتحديد بانني لا ازمع ان اتكلم عن صعوبة فكرية ، عن  
 شيء يجعل التحليل النفسي عصيا على فهم من يتوجه اليه  
 اسامعا كان ام قارئا ، بل عن صعوبة وجدانية ، عن شيء يجعل  
 التحليل النفسي يخسر تعاطف السامع او القارئ ويضعف من  
 ميلهما الى الالته اهتماما وتصديقا . ويسير علينا ان نتبين ان  
 هاتين الصعوبتين تتمخضان عن نتيجة واحدة . فمن لا يشعر  
 بقدر كاف من التعاطف ازاء شيء ما ، يعجز ايضا عن فهمه يسر .  
 مراعاة مني للقارئ ، الذي انصوره من غير اهل الاختصاص .  
 اراني مضطرا الى رواية القصة من اولها . ففي التحليل النفسي .

١ - ظهر هذا المقال لأول مرة بالجريدة في مجلة Nyugat التي كان  
 صدرها هـ. اغنتوتوس في بودابست (١٩١٧) ، ثم باللاتانية في مجلة ايماغو :  
 المجلد ٥ - ١٩١٧ . -م-

وبعد عدد كبير من الملاحظات والانطباعات الانفرادية ، تكون في خاتمة المطاف ضرب من نظرية ، يعرف باسم «نظرية الليبدو» .  
فالتحليل النفسي يسمى . كما هو معروف . اني فهم الاضطرابات المسماة بالاضطرابات العصبية والى شفاؤها . وقد كان من الضروري ، للتصدي لهذه المشكلة ، العثور على نقطة يمكن التصدي لها منها ، فقرأ القرار على البحث عنها في الحياة الفريزية للنفس . وهكذا اوضحت جملة من الفرضيات التي تتعلق بحياة الانسان الفريزية هي الاساس الذي قام عليه تصورنا عن الحالة العصبية .

ان علم النفس ، كما يدرس في مدارسنا ، لا يعطينا ، عندما نستطفه حول مشكلات الحياة النفسية ، سوى اجوبة غير مقنعة . ولكن ما من ميدان يكتنف فيه الشك المعلومات التي يزودنا بها هذا العلم كميدان الفرائز .

وعلينا نحن تقع مهمة الاهتداء الى اول الطريق . ان التصور الشعبي يخص بالتمييز الجوع والحب ويرى فيهما ممثلين للفرائز التي تنزع من جهة اولى الى بقاء الفرد ، ومن الجهة الثانية الى تناسله . ونحن اذ نأخذ بدورنا بهذا التمييز الذي يبدو طبيعيا تماما ، نفصل على صعيد التحليل النفسي غرائز البقاء ، او غرائز الانا ، عن الفرائز الجنسية ، ونطلق على القوة التي تتظاهر بها الفريزة الجنسية في الحياة النفسية اسم **الليبدو** (١) . اي الرغبة الجنسية ، ونرى فيها شيئا يضارع الجوع وارادة القوة ، الخ . في عداد غرائز الانا .

وانطلاقا من هذا الفرض نحقق في هذا المضمار اول كشف

٢ - الليبدو : كلمة لاطينية الاصل Libido . ومعنى الرغبة والشهوة والشبهة والسمه والنزوة والهوى والحاجة الطبيعية : الخ . -

هام لنا . فنحن نكتشف اننا بحاجة . كما نفهم الامراض العصبية . الى ان نغزو المدلول الاهم - الاهم بكثير - الى الفرائز الجنسية . وان الاعصية هي . ان جاز التعبير . الامراض النوعية للوظيفة الجنسية . ونكتشف ايضا ان اصابة الفرد او عدم اصابته بعرض عصابي رهن بكمية الليبدو وبامكانية تلبية هذا الاخسر وتوحيده من شحنته بإشباعه . ونفهم ان شكل مرضه يتحدد بالكيفية التي انجز بها الفرد تطور وظيفته الجنسية . او . كما نقول ، بالتثبيطات التي عاناها الليبدو عنده في أثناء هذا التطور . والتقنية التي بحوزتنا ، وهي ليست من ابسط التقنيات ، تمكننا من ممارسة تأثير نفسي على المريض ، وتتيح لنا في آن واحد ان نفهم وان نرد العديد من ضروب الاعصية الى اصلها . ومجهودنا العلاجي يحالعه اكبر نصيب من انتجاح حيال فئة معينة من الاعصية : تلك التي تنشأ عن الصراع بين غرائز الانا والفرائز الجنسية . اذ نرى ان تبدو مطالب الفرائز الجنسية . التي تتجاوز بكثير نطاق الفردية ، للانسان وكانها خطر ينهدد بفناء بالذات او تغديره - الموجب عليه - لذاته . وعندئذ يبادر الانسان الى اتخاذ موقف دفاعي . ومنع عن الغرائز الجنسية الانسباع الذي تنوق اليه ، ويجبرها على سلوك طرق مواربة للحصول على إشباع بدلي يتظاهر في شكل اعراض عصبية .

عندئذ يتوصل العلاج التحليلي النفسي الى اعاده انشطر في سيرونة الكبت ، والى توجيهه ذاك اسراع الى مال افسسل وانسب للصحة . وهنا ينحى علينا اخصام غير متفهمين بالالمنة . منهمم ايانا بالنزعة الحصرية وبإغلافة في تدبيرنا لاعمية الفرائز الجنسية : فلانسان بلا ريب اهتمامات اخرى غير الاهتمامات الجنسية ! وهذا في الحق ما لم ننسه او ننكره لحظة واحدة . ووجية نظرنا الحصرية اشبه ما تكون بوجية نظر الكيمياوي الذي يرد جميع مكونات المادة الى قوة الجذب الكيمياوي . وهو بذلك

لا يماري في الثقالة ، بل يترك للفيزيائي امر تقديرها .

لزام علينا ، في اثناء عملنا العلاجي ، ان اولي توزيع الليبيدو لدى المريض اهتمامنا . لذا نسعى الى كشف التمثلات الموضوعية Objectales التي تثبت عليها طاقته الليبيدية . ونحذر هذه التمثلات لنضعها تحت تصرف الانا . وهكذا انتهينا الى تكوين تصور متميز عن التوزيع البدائي لليبيدو لدى الانسان . فقد وجدنا انفسنا مرغمين على الافتراض بان كل ليبيدو اكل ميل ابروسي . كل طاقة حبيبة تثبت في بدء نمو الفرد على الذات ويتركز . كما اسلفنا . على الانا الذاتي . وفي زمن لاحق فحسب . وبالارتكاز الى إشباع الحاجات الحيوية الكبرى ، يطفح الليبيدو من الانا على المواضيع الخارجية ، مما يتيح لنا ان نعرف الغرائز الليبيدية بما هي كذلك وان نميزها عن غرائز الانا . ويمكن عندئذ فصل الليبيدو من جديد عن هذه المواضيع وإرجاعه الى الانا .

وعلى الحالة التي يحتجز فيها الانا الليبيدو نطلق اسم **الترجسية** . تذكر بالاسطورة الاغريقية عن نرجس الفتى . المغرم بصورة نفسه المنعكسة فوق صفحة الماء .

وبذلك نعزو الى الفرد القدرة على التقدم بتحوله عن الترجسية الى الحب الموضوعاني . لكننا لا نعتقد انه من الممكن ان ينصب كل الليبيدو على المواضيع . بل يبقى على الدوام في الانا مقدار ما من الليبيدو . وتظل هناك درجة ما من الترجسية رغم وجود حب غيري نام . ومنطور جدا . فالانسان خزان كبير ، ينسفع خارجه الليبيدو المخصص للمواضيع . وإليه يرتد من جديد . وبما ان الليبيدو الموضوعاني كان في الاصل ليبيدو الانا ، فمن الممكن ان يتحول من جديد الى ليبيدو انوي . ومن الضروري لتمام صحة الفرد الا يفقد ليبيدوه حركيته الكاملة . ولتمثيل على هذه العلاقة حسيا : لتصور المسمورة Amibe التي تصدر مادتها الجامدة والمائعة

شوى كاذبة Pseudopodes - اي استطلاات تنتشر فيها المادة الحية - والتي تملك المقدرة في كل آن وحين على ارجاعها الى ذاتها ، بحيث يعود شكل النواة الهولية الصغيرة كما كان من الاول .

ان ما سعيت الى وصفه بما تقدم هو نظرية الليبيدو فسي الاعصبة ، هذه النظرية التي على اساسها يقوم فهمنا لطبيعة هذه الحالات المرضية ويتم تدخلنا العلاجي فيما يتعلق بها . وغنى عن البيان اننا نعتبر مفترضات نظرية الليبيدو هذه قابلة للتطبيق ايضا على السلوك السوي . افلا نتكلم عن نرجسية الولد الصغير ؟ اولا نعزو الى نرجسية الانسان البدائي الراجحة ايمانه بكلية قدرة افكاره ، وبالتالي تصوره بأنه مستطيع ، بواسطة السحر ، ان يؤثر على احداث العالم الخارجي ؟

بعد الانتهاء من هذا التمهيد ، بودي ان اعرض كيف ان نرجسية البشرية ، عزة نفسها بوجه عام ، قد تعرضت حتى الان ، وبفعل التحري العلمي ، الى ثلاثة إذلالات خطيرة .

1 - في مستهل هذا التحري اعتقد الانسان في بادئ الامر ان الارض ، التي توفر له المأوى ، تقف ساكنة وسط الكون ، بينما الشمس والقمر والكواكب تتحرك في مدارات دائرية حولها . وبذلك يكون قد صدق بسداجة حواسه ، لان الانسان لا يحس البتة بحركة الارض ؛ وحيثما امكن له ان يحيل نظره بحرية ، وجد نفسه في مركز دائرة تحتوي العالم الخارجي . وكان الوضع المركزي للارض ضمانا له على كل حال على دورها الراجح في الكون بالتأثر مع ميله الى الشعور بينه وبين نفسه بأنه سيد هذا العالم .

ان تقوؤس هذا الوهم النرجسي يرتبط عندنا باسم نيقسولا كوبرنيكوس وعمله في القرن السادس عشر . وقد كان ساور الفياثاغورين قبله بحقبة مديدة شك حول هذا الوضع المتميز

للأرض ، فاعلن ارسطارخوس الساموسي (٢) منذ القرن الثالث ق.م ان الارض اصغر من الشمس وانها تدور ولا بد حول هذا النجم . اذن فحتي اكتشاف كوبرنيكوس كان قد تم قبله . ولكنه حين حظي بالقبول العام منيت الكبرياء البشرية بإذلالها الاول ، الإذلال الفلكي .

ب - لقد ارتقى الانسان ، في مجرى تطوره الحضاري ، الى دور السيد على اقرانه من الجنس الحيواني . ولكنه لم يكتف بهذه السيادة ، بل طلق يحفر هوة بينهم وبينه . فانكر عليهم العقل ، وجبا نفسه بروح لا تفنى ، وتباهى بنسب إلهي سمح له بتمزيق كل رابطة تضامن مع العالم الحيواني . وهذا الصلف - وهذا مثير للفضول - يبقى مجهولا من الولد الصغير كما من الانسان البدائي. فهو نتيجة تطور لاحق ، ذي مطامح اوسع . فالانسان البدائي، في طور الطوطمية ، ما كان يتحرج البتة من نسب عشيرته الى سلف حيواني . والاسطورة ، التي تحتوي عصارة هذا النهج القديم في التفكير ، تلبس الالهة اجسام حيوانات ، كما يصور فن الايمنة البدائية الالهة برؤوس حيوانية . ولا يشعر الطفل باي فارق بين كينونته وكينونة الحيوان ؛ ولا يدهشه البتة ان تحدنه الحكايات عن حيوانات مفكرة وناطقة ؛ ويعزو الى الكلب او الحصان شحنة الخوف الذي يبعثه والده في وجدانه ، من دون ان تساوره في ذلك اية نية للانتقاص من قدر ابيه . وانما بعد ان

يشب عن الطوق ، ينأى عن الحيوان ويصير يشتم الانسان باطلاق اسماء حيوانية عليه .

اننا نعلم جميعا ان مباحث تشارلز داروين ومعاونه وسابقه قد وضعت حدا لادعاء الانسان هذا منذ نحو نصف قرن مسن الزمن . فما الانسان بغير الحيوان ، ولا بأفضل منه ، بل انه متحدر هو نفسه من السلسلة الحيوانية ، وصلات قرباه ببعض الانواع قريبة ، وبغيرها بعيدة . وفتحاته الخارجية لم تتوصل الى محو علامات هذا التكافؤ التي تتجلى ان في بنية جسمه وان في استعداداته النفسية . وذلكم هو الإذلال الثاني للترجيبة البشرية : الإذلال البيولوجي .

ج - غير ان الإذلال الثالث ، وهو من طبيعة سيكولوجية ، اشد هذه الإذلالات وقعا وتأثيرا فيه .

فمهما تنحط مرتبة الانسان خارجيا ، يظل يشعر بأنه سيد نفسه في ذات نفسه . وقد تكون في مكان ما ، في قلب آناه ، جهاز مراقبة وظيفته ان يتحقق مما اذا كانت انفعالات المسرء واعماله تتفق ومطالب الانا . فان لم تتفق وإياها ، لجمها بلا شفقة وردعها . ويقوم الادراك الداخلي ، الشعور ، بتبليغ الانا بجميع السيورات الهامة التي تجري في الجهاز النفسي ، وتقوم الارادة ، على ضوء هذه المعلومات ، بتنفيذ ما يأمر به الانا ، مصححة ما كان يود لو يتحقق بكيفية مستقلة . وآية ذلك ان هذه النفس ليست بالبسيطة ، وانما هي بالاحرى تراتب من هيئات عليا ودنيا ، تشابك من حفزات تسعى الى تحقيق ذاتها باستقلال عن بعضها بعضا ، وتتناظر مع العدد الكبير من الفرائز ومن العلاقات بالعالم الخارجي ، على ما بين الكثير منها من تناقض وتناف . ومن الضروري للوظيفة النفسية ان تطلع الهيئة العليا على كل ما يجري الاعداد له ، وان تنفذ ارادتها الى كل مكان كيما تمارس فيه تأثيرها . وبذلك يشعر الانا بأنه يستطيع الاطمئنان

٣ - ارسطارخوس الساموسي : عالم فلك اغريقي نحو ٢٢٠ - ٢٥٠ ق.م ، من اتباع فيثاغورس ، اظهرت له قياساته الهندسية للسافيسات بين الارض والشمس والقمر بطلان نظرية ارسطو القائلة بأن الارض هي مركز الكون ، وافضت به هذه القياسات الى المناداة بنظرية تعد الشمس مركز الكون ، ولكن ملحمه لم يلق قبولا في العصور القديمة وظل منسيا حتى ايام كوبرنيكوس . -م-

سواء إلى تمام المعلومات التي يتلقاها ونزاهتها أم إلى تنفيذها  
الامور التي يصدرها .

لكن على غير هذا النوال تجري الامور في بعض الامراض ،  
وبالتحديد في الاعصاب التي تصدنا لدراستها . فالانا يشعر  
بالتضيق ، ويكاد يصل الى حدود قوته في داخل بيته ، النفس .  
فاذا بأفكار تنبجس فيه من دون ان يعرف لها مصدرا ؛ ويفقد  
القدرة على طردها عنه . بل يبدو ان هؤلاء الضيوف الغريباء اقوى  
حتى من اولئك الذين القوا عصا الطاعة للانا ؛ فهم يقاومون جميع  
قوى الارادة التي كانت قد اثبتت فعاليتها ، ولا يدون تأثرا  
بالتنفيذ المنطقي ، ولا يؤثر فيهم اثبات الواقع المنافي . او قد  
تظهر إجبارات تبدو وكأنها صادرة عن شخص اجنبي ، فينكرها  
الانا ، بيد انه يخافها ويخشها مع ذلك ، فيضطر الى اتخاذ  
تدابير احتياطية ضدها . ويقول الانا بينه وبين نفسه ان ذلك  
مرض ، غزو اجنبي ، فيضعف من بقلته ، لكنه لا يستطيع ان  
يفهم لماذا يساوره مثل هذا الشعور العجيب بالعجز .

صحيح ان الطب العقلي ينكر ان تكون هذه الظواهر من  
فعل ارواح شريرة خارجية اتحمت الحياة النفسية ، لكنه يكتفي  
بعد هذا الإنكار بالقول وهو يهز كتفيه : انحطاط ، استعداد  
ورائي ، نقص تكويني ؛ وبالمقابل يأخذ التحليل النفسي على عاتقه  
فك لغز هذه الحالات المرضية المقلقة ، وينظم ابحاثا طويلة  
ومدققة ، ويصوغ مفاهيم بدلية وانشاءات علمية ، ويستطيع في  
خاتمة المطاف ان يقول للانا : « لا شيء غريب قد دلف اليك ،  
وانما هو جانب من حياتك النفسية الخاصة اقلت من معرفتك  
ومن سلطان ارادتك . ولهذا السبب اصلا تجد نفسك في منتهى  
الضعف في دفاعك ؛ فانت تصارع بشر من قوتك ضد الشطر  
الآخر ، ولا يسعك استجماع قوتك كلها كما تفعل فيما لو كنت  
تواجه عدوا خارجيا . وليس اسوأ شطر من قواك النفسية ولا

اتفه هو ما ينتصب في وجهك ويستقل عنك على هذا النحو .  
والخطا ، ينبغي ان اقول ذلك ، خطوك . فلقد بالغت في تقدير  
قوتك حين خيل اليك انه بمستطاعك التصرف على هواك بغرائك  
الجنسية وانك لست مضطرا الى ان تقيم اي اعتبار لصواتها  
وتطلعاتها . عندئذ تمردت عليك وسلكت طرقها السرية الخاصة  
لتنجو بنفسها من القمع ، واخذت حقها على نحو لا يمكن ان  
يرضيك . وانت لا تعرف كيف تدبرت امرها ، واية طررق  
اختارت ؛ وحدها نتيجة هذا العمل ، اي العرض الذي يتظاهر  
بالالم الذي ينتابك ، وصلت الى علمك . ولهذا انت لا تعترف بهذا  
العرض فسيلة من غرائك المكبوحة ، وتجهل انه اشباع بديل لها .  
« غير ان كل هذه السيرة ليست ممكنة الا بشرط واحد : ان  
تكون على ضلال من امرك ايضا بصدد نقطة هامة اخرى . فانت  
تعتقد انك تعرف كل ما يجري في نفسك ، شريطة ان يكون على  
درجة ما من الاهمية ، لان وعيك قمين بان يعلمك به . وعندما  
تنقطع عنك اخبار ما يجري في نفسك ، تسلم بطمأنينة تامة بانه  
لا يجري فيها شيء . بل لن تحجم عن اعتبار «النفس» مطابقا  
لـ «الواعي» ، اي للمعروف من قبلك ، وهذا بالرغم من دماغ الادلة  
على انه تجري في حياتك النفسية باستمرار اشياء اكثر بكثير مما  
يمكن ان يتكشف لوعيك . اذن دعنا نؤكد علما حول هذه النقطة !  
« ان النفس لا تطابق فيك مع الواعي : فان يجري شيء ما  
في نفسك وان ياتيكم فضلا عن ذلك علمه ، فما ذلك بشيء  
واحد . صحيح ان جهاز الاستعلام الموضوع في تصرف وعيك  
يمكن ان يفي عادة بحاجاتك . ويسير عليك بالتالي ان توهم نفسك  
بانك تعرف كل ما له قدر من الاهمية . ولكنه في العديد من  
الحالات يخذلك ، وعلى سبيل المثال في حال نشوب واحد من تلك  
الصراعات الغريزية ، وعندئذ لا تذهب ارادتك الى ابعد من حد  
معرفتك . غير ان معلومات وعيك تلك هي على كل حال ناقصة ،

وفي كثير من الاحيان غير موثوقة ؛ وفي احيان اكثر قد لا يأتيك علم الاحداث الا بعد حدوثها وبعد ان يسقط الامر في يدك ازاءها . ومن يستطيع ، حتى عندما لا تكون مريضا ، ان يتكهن بكل ما يدور في نفسك مما ليس لك به علم او مما يأتيك عنه كاذب العلم ؟ انك لتتصرف كعاهل مطلق يكتفي بالمعلومات التي يزوده بها كبار اهل البلاط ولا ينزل الى الشعب ليسمع صوته . الا عد الى نفسك وتعمق فيها ، وتعلم اولاً ان تعرف نفسك ، فعندئذ ستفهم لماذا ستقع مريضا ، ولعلك ستتحاشى ان تصبح كذلك فعلاً .

هذا هو الخطاب الذي يود التحليل النفسي توجيهه الى الانا . بيد ان الاضافتين اللتين يضيفهما الى علمنا ، والممثلتين في ان الحياة الغريزية الجنسية غير قابلة للترويض الكامل في داخل النفسنا وفي ان السيرورات النفسية هي بعد ذاتها لاواعية ولا تغدو في متناول الانا وفي امرته الا عن طريق ادراك غير كامل وغير اكيد ، تعادلان التوكيد بأن **الانا ليس السيد في بيته** . وهما تشكلان الإذلال الثالث للكبرياء البشرية ، وهو إذلال سائمتسه **بالسيكولوجي** . فهل من عجب في هذه الحال ان ضمنّ الانا بعطفه على التحليل النفسي وابتى بعناد تصديق مدّعاة ؟

ولعلم قلائل من يدركون الامر على حقيقته : فالتسليم بفرضية السيرورات النفسية اللاواعية خطوة تترتب عليها نتائج بالغة الاهمية بالنسبة الى العلم كما الى الحياة العملية . لكن لنسارع الى القول بأن التحليل النفسي ليس هو اول من خطا هذه الخطوة . فقد سبقه على هذا الطريق فلاسفة مشاهير ، ونستطيع ان نسمي منهم في المقام الاول المفكر الكبير شوبنهاور الذي تعادل «الارادة» اللاواعية التي قال بها الفرائز النفسية التي قال بها التحليل النفسي . وهذا المفكر هو عينه الذي ذكر البشر على كل حال ، وبكلمات لا يُنتسى عنفوانها ، بأهمية صواتهم الجنسية الموهون من شأنها على الدوام . والفضل الوحيد للتحليل النفسي انه لم

يقدم على طبق من التجريد هاتين الاطروحتين ، الشاق احتمالهما على الرجسية : اطروحة الاهمية النفسية للجنسية Sexualité ، واطروحة لاشعورية الحياة النفسية . بل هو يسوق الدليل عليهما بواسطة مادة تعني كل انسان على حدة ، وترغم كل واحد على اتخاذ موقف من هاتين المشكلتين . ولكن لهذا على وجه التحديد يجرّ على نفسه العدا والمقاومة البشرية اللذين ما كانا لهما الا ان يتراجعا جافلين امام الاسم الكبير للفيلسوف .